مجاناً مع دبي الثقافية

أدونيس

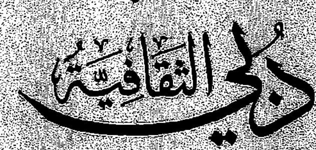
...اءٌ لغبار الطّلع



سبتمبر 2010



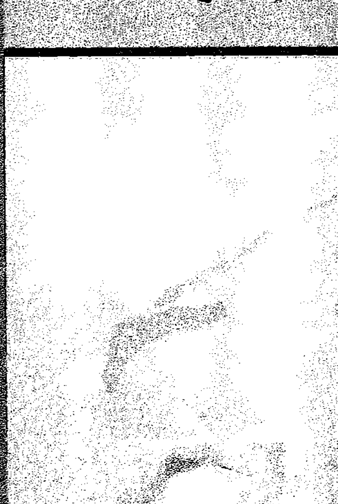
كتاب

يصدر عن مجلة دبي الثقافية

ويوزع مجاناً مع المجلة

الإصدار 40





أدونيس

فضاءٌ لغبار الطلع

■ الطبعة الأولى سبتمبر 2010
■ جميع الحقوق محفوظة لدار الصدى



مجلة دبي الثقافية تصدر عن دار



للصحافة والنشر والتوزيع

عناوين المجلة

■ التحرير والادارة دبي:
الإمارات العربية المتحدة دبي
منطقة الصفا شارع الشيخ زايد
هاتف: ٣٤٢٢٢٢٤/ ٩٧١٤+
فاكس: ٣٤٢٢٦٦٦ ٣٤٢٢٩٢٩ / ٩٧١٤+
أبوظبي هاتف: ٦٢٦٨٨٩٢/ ٩٧١٢+
فاكس: ٦٢٦٨٨٨٣/ ٩٧١٢+

■ الإعلانات والتسويق:
دبي شارع الشيخ زايد
برج المدينة (٢) شقة ٤٠٢ ص.ب: ٢٩٠٦٦
هاتف: ٣٣١٤٣١٤/ ٩٧١٤+
فاكس: ٣٣٢٢٢٩٢/ ٩٧١٤+

■ التوزيع والاشتراكات:
هاتف: ٣٤٩٠١٠٠/ ٩٧١٤+
فاكس: ٣٤٩٠٦٠٠/ ٩٧١٤+

هذا الديوان

بقلم: سيف المري

استهل شاعرنا الكبير الأستاذ أدونيس إصداره الرائع هذا بالاستشراف من شرفة تطل على بحر العرب، موجهاً أسئلته لامرئ القيس بن حجر، ومستنداً إلى طرفة بن العبد، حيث يرى أن شعر طرفة لايزال يطرح سؤاله على أبجدية بحر العرب، ويجنح ثانيةً مع امرئ القيس وهو يخصف نعله بالماء والرمل محولاً الجدران إلى أجنحة لكي يحيا، ومبتكراً المكان ومحمولاً على ناقة الشعر.

ولا شك أن أدونيس كان يستشعر غربة امرئ القيس وهو يعيش بين غربتين: أدناهما المكان وأصعبهما الزمان، وتبلغ الغربة أقصاها حين يخاطبنا وهو في أقصى الأرض بقصيدة «شانغهاي» في حفل يبدأ ولا ينتهي، ويسهر هو على قبر المعنى، فهل تراه وجد أن الكلمات لم تعد أجساداً قادرة على احتمال روح الشعر وتتكرر الأبجدية؟

ثم يوقف الحزن الشاعر حين يعجز عن أخذ قارورة الحبر الصيني معه عندما تمنعه قوة القانون، وإن كان الشعراء هم سادة التمرد على القوانين فإنه ولأمر خارج عن الإرادة امتثل ولا رسالة، وكما يقول في نهاية القصيدة «سافر الورق في الحبر الأسئلة، سافر الحبر في الصوت»، ومازال السفر ومازال الشعر رحلةً بغير نهاية وإلى غير غاية إلا الشعر بذاته ولذاته.

فلنقلِّب معاً صفحات هذا الإصدار الموسوم بكل حروفه وحركاته ببصمة صوت رائد الشعر العربي المعاصر الأستاذ أدونيس، ولنبحر معاً في رحلة الغموض والتيه، ولنبحث عن الأسئلة التي تغلف طلاسم المعنى، فربما نقترب من سماء أدونيس التي قال عنها في الصفحة الأولى من القصيدة الأولى من هذا الديوان متسائلاً: «من قال الشاعر لا يدخل السماء إلا محروساً بالجحيم؟!».

ونحن نطرح ذات السؤال.. فهل من إجابة؟

الوعي الحاضر بالكتابة

بقلم: نواف يونس

اعتدنا في المحفل الأدبي، أن يقدم الأستاذ تلميذه، إلا أنني وجدت لزاماً عليّ، وأنا التلميذ أن أقدم أستاذي، الذي ترجم شعره وكتبه إلى جل لغات العالم، بعد أن رشح لجائزة نوبل عدة مرات، إلى جانب أنه ومنذ أكثر من نصف قرن من الزمان، وهو لا يزال يمارس مزيداً من الحضور المتميز في المشهد الثقافي العربي، سواء على مستوى الإبداع الشعري أو الفكري.

إن أجمل ما في أدونيس ذلك الحس النقدي، الذي طال مفهوم وأبعاد وجوهر الحداثة الشعرية العربية، والتي من وجهة نظره، لا يجوز لها أن تختزل الحركات العلمية والفنية والاجتماعية والدينية، على مر العصور، بالخروج عن أوزان الخليل بن أحمد الفراهيدي وحسب، مصرًّا على أن نمارس الوعي الحاضر بالكتابة، وبالتالي التأسيس لعالم أفضل من خلال إنسانٍ أكثرَ انخراطاً في الحرية وبإرادته.

إنـه أدونيس البـاحث الدائم عن نفسه، بـالكثير من الصدقية والشفـافية، من خلال توصيف وتوليد واستنبـاط رؤى مستقبلية، تكون قـادرة على إعـادة ترتيب الأولـيـات، وتوفير قـوة دفـع، تمكن الحركة الشعرية العربيـة من قيامـها بدورهـا التنويري إنسانيـاً، قبل أن تستكمل دورهـا الثقـافي وتـأثيره في الحراك الاجتمـاعي العربي، عبر محـاولة ترميم الذاكرة، والإنصـات إلى نبض مرحلة البحث عن مضمون التراث، كون الواقـع يتطلب عصرية النظام المعرفي والجمـالي، من أجـل التحـول إلـى الوعي الفـاعل، وليس الوعي الزائف، الذي يكرس السـائد ويعمل على استمراريته.

أدونيس
فضاءٌ لغبار الطّلع

أسئلةٌ لامرئ القيس
من شُرْفةٍ تُطلّ على بحرِ العَرَب

I. العابر المقيم

-١-

منْ قالَ: «الشاعر لا يدخل السماءَ
إلاّ محروساً بالجحيم؟»،
سؤالٌ لا يزالُ شعرُ طرفة بن العبد،
يطرحُهُ على أبجديَّةِ بَحْرِ العرب.

-٢-

الجهاتُ هنا هي الجهاتُ كلُّها.
طيورٌ مُهَاجرةٌ. أبراجٌ بوارج. كيف لماذا أنّى أيْن؟
إذاً، هل تُعانِقُ الرّملَ أيّها الماء، هل تعانق الماءَ أيّها الرّمل؟
هل العابرُ هو وحده المقيم؟ هل الأبديّ هو، وحده، الفقيرُ إلى الزّائل؟
الصّحراء التي نامت فجأةً في سرَيرِ العشب،
تَنْهَضُ وترقص.

-٣-

«أهناكَ حكمةٌ واحدةٌ لا تقدرُ المعرِفَةُ أن تُبْطِلَها»؟
سألتني مَوْجةٌ في طريقِها إلى أن تَلتطمَ بشَمْس الشّاطئ.

-٤-

عَجَباً لهذا المكتشفِ الكريم الذي يُسَمَّى الإنسان،
كيفَ لم يكتِشف حتى الآن بُخْلَ السماء؟

-٥-

أَضَعُ رَأْسَكَ في رأسي أيّها الوَقت وأُفكِّرُ أنت الجَذْرُ لكِنَّكَ الوَرقَةُ الذَّابِلَةُ التي تُشرِفُ عَلى السقوط أنتَ الأكثَرُ عُلواً غير أنك تقيم في غَوْرِ الأغوَار أنتَ الصَّحوُ وليس في خطواتِكَ وأهدابكَ إلاّ وحلٌ يَتَحَدَّرُ من عُفوناتٍ كفلتها سماء السماوات أضع رأسي في رأسك وأسأل: أيُّنَا الآخر؟

وها هِيَ الكَواكِبُ تَسهرُ كَأَنَّها تَتَرَقَّبُ الهَوْلَ الذي سيضربُ كلاً منها بِيَدَيْ كلٍّ منا.

-٦-

لا تَزالُ السّماءُ فتيةً فوقَ بَحرِ العرب،
والأَرجَحُ أَنَّها لا تَهْرَم.
لكن، هل هذا القولُ مَدْحٌ أم هِجَاء؟

-٧-

هُنا، أمس،
بَدتْ لي أشعّةُ الشمس كأنّها شِفَاهٌ
يَلَذُّ لها أن تظلَّ في حوارٍ مع الزَّبَد.
لماذا، إذاً،
عندما حاولتُ أن أدجِّنَ شُعاعاً،
تمرَّد عليّ الأفق؟

-٨-

الهويَّةُ؟
قَهْوةٌ تُسمّى الصّباح،
في مكانٍ يُسمّى الهجرة
حيث يستقبلكَ شيطانٌ
لا يَحملُ في وجهه، غالباً، إلاّ الخَيْر.

-٩-

التِّقْنِيَة – هذه المقبرةُ البلَّوريّة
كنتُ أغْدو فيها وأروحُ
مُطوَّقاً بِوزدٍ أحمرَ
يَقْتَفِي رائحةَ أيَّامي.

-١٠-

كيف يَشْفى المكانُ والزّمَنُ هو نفسُه داؤُه؟
سؤالٌ أقْسَمَ بعضُهم أمامِيَ
أنّه يقدر أن يُسمّيَ السّماءَ باسمٍ آخر.
أمّا أنا، فأكثرُ مَيْلاً إلى الحياةِ
في جَوْفِ سؤالٍ آخر، يَبْدُو كأنّه
ليسَ إلاّ حُوتاً كَوْنياً.

II . سندباد الكترونيّ

-١-

تحت نجمةٍ،
في زاويةٍ تكادُ أن تُفلتَ من شَبكة السّماء،
تنسجُ إبَرٌ إلكترونيةٌ شراعاً لسفينةٍ ليس عرشُها
على الماء،
وإن كانت من سُلالَةِ البَحر.

-٢-

عندما يركب سفينةً،
يكونُ قد علّقَ القمرَ بقَرْنَيْ غزالٍ،
وتفقّدَ أثداءَ الصّحراء، تلك التي ترضعها النّجوم.

-٣-

الثّوبُ الأوّل الذي خاطَهُ السّفرُ له،
سَمّاه الموج.

-٤-
يُبحر – كأنَّ جسمه دلفينٌ عاشِقٌ،
وكأنَّ البحرَ فرَجٌ كَوْنيّ.

-٥-
يعرفُ مُسّبقاً، أيّتها النّوارس:
يوماً، سَتَجيئين إليه،
وَتَنْتخبينَ حُبّهُ أميراً على أَجْنحتكِ.

-٦-
بين أَفضل هوايَاته:
أن يتقرّى، كلّ يومٍ، قُبيلَ نَوْمه،
تجاعيدَ أَحْلامه.

-٧-
«ألكَ أجنحةٌ، وكيف نَبتَتْ؟»:
سؤالٌ يَطرحهُ الموجُ دائماً عليه.

-٨-
عجيبٌ أَمْرُ البَحّارةِ الذين يُصادفهم:
كلٌ منهم يريدُ أن يملكَ البحر.
هكذا يَزْدادُ رغبةً في أن يكون كالضّوء –
لا مُلْكَ له.

-٩-
عَلّمه السّفَرُ
أنَّ الموتَ، خلافاً لِمَا يُظَنّ،
هو الواضِحُ،
وأنّ الحياةَ هي الغامضة.

-١٠-

كتَب إلى أحد أصدقائه:

«ثمّة موجٌ يقيمُ في الرأس، وآخرُ بين الكاحلِ
والسُّرَّة.
هل يمكن أن نُخْضِعَ الموجَ،
وأن نَسْتَتْبِعَهُ؟
لا تزالُ أمامي مشكلةٌ تؤرِّقُني:
كيف أُحْسِن الانتقالَ مِن قيادةِ اللُّجَجِ
إلى قيادة الشّواطئ؟».

-١١-

يُحبّ أخطاءه في القولِ، أحياناً: نعم
ففيها يقرأ لاءاتِهِ الكريمة الصّامتة.

-١٢-

«هو العابرُ الزّائل»، كما تقولينَ، أيّتها السّماء،
فلماذا، إذاً، تَهْتمّين به؟

-١٣-

على خاصرة ذرَّةٍ تتنزَّهُ في حديقةِ المادة،
ألقى رأسه.
وأخذ يقرأ ألفَ ليلةٍ وليلة.

-١٤-

اللّحظةُ العابرةُ هي التي ترسُم وجهَه بحبر الأبديّة. ومع أنّه استطاعَ أن يتنبأ بمجرى الكواكب، فإنّه لم يقدر أن يُسيطرَ على مَجْرى السُّفن وشهواتِها.

هكذا كَتَب في يومياته:

«كَلاّ، لن أقولَ: النّاقةُ لم تعد تُجْدي.

لن أقول اهتدت يدا العالم وقدماه إلى رَقْصِ الجاز الملائكي.
سأقول:
انكسرت الجرارُ التي ملأها النُّواسيُّ والخيّام،
وامْتزَجَتْ أباريقهما بفخار الضوء.
وسوف أرافقُ بُرْجَ دُبَي،
يقرأ في عُزْلته العالية،
جَزْرَ البحر العربي في ذلك الكتاب الضَّخْم
الذي يكتبُه مَدُّ التّاريخ».

III اللّيل والفجر

-١-
حلم اللّيل بيتٌ
هَيْهات أنْ ينتهي الفجرُ من بنائه.

-٢-
هُو ذا نَمْلُ الليل
يجرّ وراءه خبزَ الفَجر.

-٣-
مَرّةً، فاجأتُ الفَجْرَ
يغسل صَدأَ اللّيل.
نَفِدَ ماءُ الغَسْلِ، ولم تَنْفَدِ الحاجة إليه.

-٤-
صُوَرٌ لليلِ داخلَ اللّيل
تُزيّن دفترَ الفجر:
هي أَمْتَعُ ما يُقْرأ فيهِ،
وأَشْهَى ما يُرى.

-٥-

تُؤْثِرُ الشَّمسُ،
عندما تخرجُ من بَيْتِها مع الفَجْر
أَنْ تذهبَ إلى العَمل
في زِيِّ امرأةٍ عاشقة.

-٦-

تَحتَ خُطوات اللّيل،
يتكسَّرُ زجاجُ الفَجْر.

-٧-

لن تُشْبِهَ أبداً، أيّها الفَجرُ
جسدَ المرأة التي أُحبّها.
وأنتَ كمثلهِ، أيّها اللّيل.

-٨-

للّيلِ حقولٌ
كأنّهنّ نساءٌ يَتشهَّيْنَ بذارَ الفَجْر.

-٩-

خَاتَمُ اللّيل
في إصبعِ الفَجْر.

-١٠-

فَجْراً، عندما استَيقظتُ أمسِ،
رأيتُ الشّمس كأنّها تُغطّي وَجْهها،
رُبّما لكي تعرفَ
كيفَ تتذكّر سريرَ اللّيل.

-١١-

في منَاجم الشّعر العربيّ،
يجلس اللّيلُ والفَجرُ، صَامِتيْن.
عندما يطيبُ لهما الكلامُ،
يأخذهُما الحديثُ عن القَتْل والهجرةِ والعرَب.

-١٢-

يُمضي اللّيلُ أَصْعبَ أوقاتِهِ
في نَزْع الأَغْطيةِ عن سَريرِ الفَجْر،
يُمضي الفَجْر أطيب أوقاتهِ
في تَرْتيب فراش اللّيل،
وفي اختيار الأَغْطيةِ والوسائد.

-١٣-

عندما يَحينُ الشّروق في بَحْر العرب،
تَصْطحبُ الشّمس معها رفيقيْها:
اللّيلَ تَحْتَ سُرّتها،
والفَجْرَ بين ثدْييها.

-١٤-

صَحْراءُ - بَحْرٌ آخر:
تكتب اللّيل بريشة الموج،
تكتب المَوْجَ بحِبرِ اللّيل،
والفَجْرُ قارئها الأوّل.

-١٥-

قُلْ عَنّي، زيوس، ما شئت،
واغْضَب كما لم تَغْضَبْ منَ قَبْل،
لَنْ أَبَدِّل، لن أُنكر، لن أتنكّر:

نعم، إنّها فينوس، فينوس نفسها
تلك المرأة التي أمضيتُ معها اللّيل والفَجْرَ،
سابحةً في بَحْر العرب.

-١٦-

رَمَى اللّيل شِباكَهُ في بحر العرَب،
فتصيَّدَ الفَجْرَ،
رمى الفَجْرُ شِباكَهُ،
فَتصيَّدَ اللّيل.

-١٩-

في كلّ مكانٍ، يودّعُ اللّيل الفَجْر
وداعَ لِقاءٍ قريب،
إلاّ في بَحْر العرب:
اللّيل والفجرُ لا يفترقان،
كمثل الوردةِ وعطرها،
أو كمثل خدّيْنِ لوجهٍ واحد.

-٢٠-

«قبيلَ أنْ يَنهض اللّيلُ من سريره،
سأمهّدُ لك الفراش، يا حُبّي»:
تُغنّي نجمةُ الفَجْر، في بَحْر العرَب،
كلَّ يَوْم،
وَحدهُ حُبُّها، لا يَعرفُ كيف يُصغي إليها.

IV يقين الموج

-١-

تلكَ هِيَ أمواجٌ لا عَهْدَ لي بها



تهجمُ عليّ.
اتركوها، إذاً، أيّها الأصدقاء،
تتَلاطَمْ، وَلْتجرفْني –
إنّها أمواجُ الرّغبة.

-٢-

حَتّى الآن، أيّها الشّعر،
لم تفتح لي أيّةَ نافذةٍ
على ذلك المجهول الذي تَعِدُ به.

-٣-

للغسق في بَحْر العرب
حمرةٌ ينسجها ريشٌ يتطايَرُ في أفقٍ
كأنّه حَيٌّ في مدينة الفضاء
تسكنه فصائلُ من طيور البجع.
حُمرةٌ –
تحضنها دائماً على الشّواطئ
حدائقُ من أقحوان النّوارس.

-٤-

نعرف، أيّها البحر:
منذ نشوئِكَ،
لم تتوقّف عن عَزْف تلك الموسيقى
التي ابتكرتْها طفولةُ أمواجك.
لكنْ، كلّما أصْغينا إليك،
يُخَيَّلُ كأنّك تعزف للمرّة الأولى.

-٥-

الماءُ، عادةً، هو الذي يبكي
بينَ يَدَيْ الشّمس.

فَلِماذا، في بَحْر العرب،
نَجِدُ أَنّ الشّمسَ هي التي تبكي
بينَ يَدي الماء؟

-٦-

لا جُذوَر إلاّ في الماء:
وتلكَ هي خطبة الملح
في وداع الشواطئ
وفي العودة إليها.

-٧-

مَلاّحٌ في بَحْر العرب،
يقرأ الرّيحَ والأفقَ،
البَرَّ وما وراءه،
التّاريخَ وتحوّلاته —
فيكتبُ لأبنائه:
«هل ستُصدّقون
إن قلتُ لكم
الكونُ مثلّثٌ
والزّمنُ دائرة؟»

-٨-

«لا رغبةَ لي غيرُ الرّغبة»:
يهمسُ الموجُ للشاطئ، في المدّ.
في الجَزْرِ يهمسُ:
«أنا الدّاخلُ
وليس الخارج إلاّ داخلاً آخر.
هكذا أتعدّدُ،
وأظلّ واحداً»

-٩-

يقول بَحرُ العرب:
«المرئيُّ، عندي، يَتجرَّدُ في الحلم
واللاّمرئي يَتجسَّدُ في العمل.
الحلمُ والعَملُ
جناحا هذا الطائر العابر
الذي يسير على قدمين اثنتين،
ونسمّيه الإنسان.
«سافرْ فيَّ»، يقول الحلم،
وسوف ترى أَنّ السّماءَ أجمل من الأرض».
«سافِرْ فيّ»، يقول العمل،
وسوف ترى أَنّ الأرضَ أجملُ من السّماء».
جناحان عاشقانِ
كلاهُما يرى نفسه في الآخر.»

-١٠-

«الماء يُلامسّ، يَنْفَذُ ويخترق،
هكذا يكتبُ الجذور. هكذا يتخطّاها.
الطبيعةُ كتابة الماء.

-١١-

الشّواطئُ نفسُها لا تقبلُ
أن ينهزمَ الموجُ الذي يهجمُ عليها.
كذلك البحر،
لا يقبل أن ينزل الموجُ عن كتفيه.

-١٢-

أيُّها الأسلاف الذين أخذهم الموجُ
إلى الأبد،

هل تقولون لنا،
أين تلك المرافئ الخفيّة التي كنتم تتّجهون إليها؟

-١٣-
الشّمس تنحني على صدر الرّمل، حارّةً غاويةً:
أَهُنَاك سَريرٌ يتّسع لهذا الانحناء؟

-١٤-
لماذا، يا فِراشَ الماء،
تخونُ حُبَّ الزّبَد؟

-١٥-
عندما يتحدث البَحّارة عن الحقيقة،
يأخذ الزّبد بالكلام على الوَهم.

V شمْسٌ
في رعاية الماء والرّمل

-١-
– لماذا يبدو الأكثرُ قِدَماً في بحر العرب
كأنّه الأكثرُ جِدّةً؟
– تلك طبيعةٌ يتعذّرُ فَكُّ أسرارها.

-٢-
الحياةُ، كما يزعم الموتُ، أُسطورة.
غيرَ أنّها، كما تؤكّد الأشرعة،
موجٌ يتلاطمُ أبداً.
يواصِلُ الزّمن في قاعة المسرح العربيّ
عَزْفَ لحنِهِ –

الثّقيلِ، البطيء، الميّتِ،
القديم.

-٤-

ما مِن صَوْتٍ في العالم
يعرف أن يغنّي الموتَ، استهتاراً بالحياة،
كما يغنّيه الصّوتُ العربيّ:
أهي فضيلةٌ، أم رَذيلة؟

-٥-

ما الفَرْقُ، في الموتِ،
بين ورَدْةٍ ميّتةٍ وامرأةٍ ميّتة؟
لماذا لا نتذكّر في الحياة هذا السّؤال،
فيما نشمُّ وردةً،
أو نُعانِقُ امرأةً؟

-٦-

كيف أعتذرُ للكلمات؟
لا أعرفُ أن أضعَ
في عنقِ الموتِ،
أيَّ عِقْدٍ من عُقودها، إلاّ مُنْفَرِطاً.

-٧-

لا يقينَ إلاّ في الحبِّ،
لا يقينَ حتى في الحبِّ.

-٨-

وَضَعت مَوْجَةٌ رأسَها على الرَّملِ،
وشَهقَتْ مَيْتةً

-٩-

- «مِنْ أين لي
أن أتعلَّم حكمةَ الشّاطئ،
ولا أكادُ أُولد حَتّى أموت»؟
سألَتْ مَوْجَةٌ أختها،
ولم تنتظر جواباً.

-١٠-

وأنتَ أيضاً، أيّها الشّاعر،
تسألُ: ما الحقيقة؟
أليست حليباً
في ضرْعِ الرّمل؟

-١١-

كلّما حاولتُ أن أقتربَ من الغيب
يدفعني جسدي إلى الاقتراب أكثر فأكثرَ:
هل هو أخٌ له، أو صديقٌ، أو عاشقٌ؟
هل جسدي غيبٌ آخر؟

-١٢-

البَحْرُ، هو كذلكَ، يَجْدِفُ سَفينتَهُ
لكن في اتجاهِ نفسه.

-١٣-

عَرَقُ الحبّ عَذْبٌ يُجدّد الحياة،
وعرَقُ الكراهية سُمٌّ يَقتلُها.

-١٤-

الماء سرٌّ بعيدٌ، بل هو السرُّ الأَبْعد
غير أَنّه أليفٌ قريبٌ
حَتّى أَنّنا ننساهُ
بفعل هذه الألفةِ وهذا القرب.
ليس الماءُ، إذاً،
لغةً في الظَّمأِ والرّي،
بِقَدْرِ ما هو لغةٌ في السرّ،
وفي الكشفِ عن السرّ.

-١٥-

«تَوقّفوا عن قراءة كفّي»،
يقول بحر العرب لملاّحيه،
اقرأوا الموج.

-١٦-

يَعمل الملاّحون، ويحلمون
فيما تترصَّدُ النّوارسُ كنز الأمواج،
وتُعَلِّلُ الأمواجُ صَبْرَ النَّوارس.

-١٧-

لا تحلم الحياةُ أحلامَها المنوَّرة
إلاّ عندما تنام في سريرٍ
كأنّه قَلَقُ الموج.

-١٨-

رياحُ البَحْرِ أَهْدابٌ للفضاء:
حَزَام، أيّتها الصّادقة،
أين أنتِ؟ ماذا ترين؟ ماذا تقولين؟

-١٩-
غالباً،
لا تكون موسيقى الأمواج
متناغمةً مع كلام الشواطئ.
غالباً،
ليست هذه علامةً سيئة.

-٢٠-
«الأكثر غرابةً هو الأكثر قرابةً»:
العبارة الأولى التي يتذكّرها بحر العرب،
عندما تضع الشّمسُ، فجراً،
وَجهها على وَجهِه.

VI مُخيِّلة لابتكار المكان

-١-
كان أمْرؤُ القيس، فيما يُروى، يَخْصِفُ نعلَهُ بالماءِ والرِّمْلِ،
في اللّحظةِ ذاتها.
هكذا كان يقول لأصحابِهِ:
أن نحيا هو أن نحوّل الجُدرانَ إلى أجنحة.
وكان يقول:
المخيّلةُ هي التي تَبتكرُ المكانَ -
محمولاً على ناقةِ الشّعر.
وكان يُغري الشّمسَ، وهي تَستيقظ أن تتلمّسَ آثارَ النّجوم على
وسادتِه، قُبَيْلَ أن يَسْتيقظ.
وكان يقول: لي مَنْزلان،
واحدٌ لا يَصلحُ للسُّكْنى،
وآخرُ أقيمُ فيه - مُتَرَحِّلاً بين أَسْنَان الوقت.



-٢-

أسألك أنتَ، أيّها الشاعر المترحِّل،
هل رأيتَ قصيدةً أجملَ من سرير فاطمة؟

-٣-

أَنا جَارٌ لكَ، أيّها الشّاعر،
في الجِهةِ الثانيةِ التي يَتَنَوَّرُها بَحْرُ العرب،
وأشعرُ أنني كمثْلِ شجرةٍ..
تَسْتَحِي حَتّى من المطرِ الذي يتساقطُ عليها.

-٤-

انظرْ بعين السَّماء التي تَحْتضنُ بَحْر العرب،
وسوف ترى أنّ الوجودَ شَكْلٌ من أشكالِ النّوم.
انظرْ بعين الأرض التي تلبس السَّماء،
وسوف ترى أنّ هذه السّماء
شَكْلٌ مِن أشكالِ الحلُم.
هُنا، باسْمِكَ يا امْرَأَ القيس،
أريدُ أن أقولَ: وَرْدة الفلسفة تذبلُ،
منذ أن تتفتّح.
والعِطْرُ هو أولاً أن تحيا
فيما تتنشّق التّعبَ
مِن قدمي هذه الشمس
التي تُسمَّى الحياة.
أريد أن أقول:
الشّفاهُ ليست أوّلاً أن تتكلّم
بل أن تَرْضعَ شِفاهاً أخرى.
أريد أن أقول:
زَمَنُ الأرض لا يُقْرَأُ
إلا بالجراحِ التي تكتبُ جَسدَها.
أريدُ أن أقول:

لا يَسبقِ الفَجْر نفسَهُ وغيره،
إلا في الشّعر.

-٦-

لوَ لم تكن هناك سَماواتٌ
لما كانَ للأرض إلاّ قدَمٌ واحدة،
ولكانَ الرأس مُجَرّدَ جَرَّةٍ
ليس فيها غيرُ ماءٍ آسن.
وأعرِفكَ، يا امْرأَ القَيْس:
عندما تقول السّماء، تقول الترحُّلَ وتقول التحوّل.

-٧-

أَضُمّ صَوْتي إلى صوتكَ، يا امْرأَ القيس،
مُقْسماً أَنّ الحكمة وردةٌ ذابلة،
والخطرُ نفسهُ يُشجِّعني على هذا القَسَم.

-٨-

هَل تَغْضبين مِنّيَ، أيّتها الطّبيعة، أَوْ تَغَارين،
إن قلتُ إنّ قلبي الآنَ
أشدُّ خفقاناً
من رياحك التي نسَجَت لامْرئ القيس
خطُواتِهِ وقُمصانَه؟

-٩-

تحت وسادتي،
أُخَبِّئ هذه الرّسالة التي كتبها امرؤ القيس
قبيلَ موتِهِ، إلى أحد أصدقائه:
«ينبغي عليك أن تحاربَ الأفقَ ذاته،
إن كنتَ لا تقدر أن تبتكرَ فيه،
أثيرَكَ الخاصّ»

VII سوق الظلام، سوق الضّوء

-١-

سابقاً، سُمّيت «سوق الظّلام»،
لاحقاً، غلبَ عليها اسم «سوق مطرح».
لماذا، لا تُسمّى، الآن، «سوق الضّوء»؟
خصوصاً أَنّ للشمس فيها كُرْسيّاً عالياً:
بعضُ قوائِمهِ في المرفأ، تُحيط بها تقاليد البَحر،
وبعضها في حركة العمل تحيط بها تقاليدُ النّهار واللّيل.
سوقٌ – حَقْلٌ للتّاريخ:
تتعايشُ المذاهبُ، القيمُ، الصّناعات.
وتتعانقُ أنحاءُ الأرض.
يُمكن أن تُعطى لهذه السوق أسماءٌ أخرى كثيرة «لا شرقيّة ولا غَرْبيّة»: سوق المعنى. سوق الصُّوَر. سوق الحكمة.
سوقُ الصّداقات.
لا تَنْسَ، إذاً، أن تَسْتَحْضِرَ في هذه التّسميات ما يقوله أبو حيّان التّوحيدي:
«الصّديقُ آخَرُ هو أنت».
تَهَيّأْ، إذاً، لكي تُتْقِنَ أسلوبَ المَوْج، ولكي تغطَّ رِيشَةَ الكتابة في رحيق الفضاء.

-٢-

الفضاءُ الذي تَيسّر لي أن أتحرّكَ فيه، ناحِلٌ وضيّقٌ،
قياساً إلى فضاء عُمَان.
فضاءٌ – سديمُ انفعالاتٍ وحواسّ. لا نقتربُ فيه
إلى الحقيقة إلاّ بشكلٍ مائل. أعني على نَحْوٍ غير مباشر:
نَتَلَمَّسُ، نتأكّد بِقَدْر ما نُمارسُ اللّغة المجازية. المجازُ هنا طريقٌ ملكيّةٌ لمعرفةِ الحقيقة.
فضاءٌ – أعمالٌ فنيةٌ لا تكتمل: لا يكمن معناها في المادة التي تُكَوِّنها، بل في حركيّة التكوّن.

ما تكونُ الألوان، إذاً؟ وما «الشّيء» الذي يُرسَمُ في الشّيء؟ أيجيء من «الدّوافع»، أم يَجيء من «الغايات»؟ أهُوَ سَفَرٌ، أم وُصول؟
(استطراداً، أيّتها الرّسامة الجميلة: هل المسألة في الفنّ أن يُنتجَ الفنّانُ ما يراه، باعثاً فينا الشّعورَ بأنّ العالمَ يتجمع حولَنا، وأنّنا نُجاوِره؟ أم أنَّ المسألةَ، على العكس هي أن يُنتجَ باعثاً فينا الشّعورَ بأنَّ العالمَ يتولّد، ويتحرك، ويتغيّرُ حولَنا وفينا؟).

-٣-
شجرةٌ في الشّارع (أهي سِدْرَةٌ أَمْ غافَةٌ؟)،
تسهَرُ على ظلّها، تكادُ أن تبكيَ من الوَحدة.

-٤-
جبالٌ سودٌ: شهيقُ الفَضاء وزفيرُه.
وفي كلّ مُفترَقٍ أسمعُ صلاةَ الصّحراء.

-٥-
أمشي: خُطواتي أسئلةٌ يلْتهم بعضُها بعضاً.

-٦-
المساءُ يَضَعُ عُكّازَه على العتبة.
تهيّأ لكي ترى كيف يَثأرُ القمر للماء من الشّمس،
تَهيّأ لكي ترى كيف يغارُ النّهارُ من اللّيل.

-٧-
قلتُ في حديثٍ خاصٍ لصديقٍ عُمانيّ يُعْنَى بالسّياسة:
- هناك التباسٌ هائلٌ في سوق اللّغة السياسية العربيّة.
ألا تعتقد، في ضوء هذا الالتباس، أنّ العربَ، اليوم - سياسياً على الأقل - في حاجةٍ كيانيّة إلى مُستَقبلٍ ليس له ماضٍ؟
فُوجِئ. لكنه قال:

– لا بُدّ من أن نبتكر لغةً سياسيّةً تقومُ على توازُنِ المجتمع، لكي نعرفَ كيف نُسيطرُ على هذه اللغة الشائعة التي تقوم على توازن المصالح، وكيف نوجّهها، لكي نتخطّاها ونتخلّصَ منها.

– لغة تكونُ لها أجنحة، ويكون لها فضاء.

– دون ذلك، سيظلّ كلّ بلدٍ عربيّ يعيش ويفكر كأنّه مُجرَّدُ وظيفةٍ في سُوق التّاريخ.

– أو مجرّدُ وظيفة في ديوان السّماء.

– هل تحدّثت مرّةً مع متديّنٍ أصولي؟

– نعم. ليس في عُمان، بل في بلدٍ عربي آخر. وكان النّقاش يدور حول علاقة الإسلام بالفنّ والأدب. أذكر أنني سألته: هل تدرك المأزقَ الدّيني الذي يكمن، مثلاً، في عبارة «فَنّ إسلاميّ»؟

فقال مستغرباً: مأزق؟ ما هو؟

قلتُ: إنّها عبارة تضطرّك، مبدئياً ومنطقياً، وانسجاماً مع مقتضياتها، إلى استخدام عبارات أخرى، مثل: «رَقْص إسلامي»، و«غناء إسلامي»، و«موسيقى إسلامية»، وإلى استخدام عباراتٍ مماثلة في ميادين العلوم، مثل: «فيزياء إسلاميّة» و«كيمياء إسلاميّة»، و«علم تشريح إسلامي».. إلخ.

هل هذا ممكن؟ وكيف نحدّد آنذاك الخصوصية الإسلامية في هذه الفنون وهذه العلوم؟

فجأةً، رأيته يضطرب، وينهض غاضباً، ويغادر الجلسة.

–٨–

فندق تشيدي: عندما دخلته، شعرتُ أنّ في اللّغة العربية أكثرَ من كلمة، إذا لُفِظَتْ قُرْبَ نَخْلةٍ تحوّلت النخْلة إلى يَمامَةٍ أو إلى مَوْجة.

وشعرت أنّ الأفق حوله يَخيط جلبابَهُ بإبرَ النّخيل.

صَمْتٌ هو نفسهُ صوتُ اللّغة.

والجَسَدُ، ذكراً وأُنثى، مأخوذٌ بالخروج من شبكَةِ اليقين.

-٩-

سأُخبِرُ المتنبّي في وقتٍ آخر أنني اهتديتُ به، وضربتُ موعداً باِسْمِهِ مع مليكة سبأ.

قولوا، إذاً، للقمر ألاّ يخرجَ هذه اللّيلة مِن بيته.

وقولوا لكلّ شَيْخَةٍ أن تمزجَ صلواتها الصّباحية بفُتُاتِ خبزٍ طيّب، وأن تنثرَها طعاماً لطيور الصّباح، طيوُرِ الدُّوري، خصوصاً.

-١٠-

سَبقتني وردةُ المادة، هذا الصّباح، وخرجت قبلي لابسةً أشعة الغيب.

-١١-

لطيورِ النوّارسِ، هنا، أجنحةٌ تبدو كأنها شِبَاكٌ لاصطيادِ الهواء.

-١٢-

على كَتِفَيْ سِدْرةٍ يتموّجُ منديل اللّيل. في جذْع نَخْلةٍ يُبْحر مركبُ الوَقْت.

يَحارُ الأفقُ نَفسُهُ في تذوّقِ طَعْم المكان.

-١٣-

امْرأةٌ تَسير وحدَها في قاعة الفندق، كأنّها تريد أن ترقص.

خُذْها بين ذراعيكَ. أيّها اللّيل.

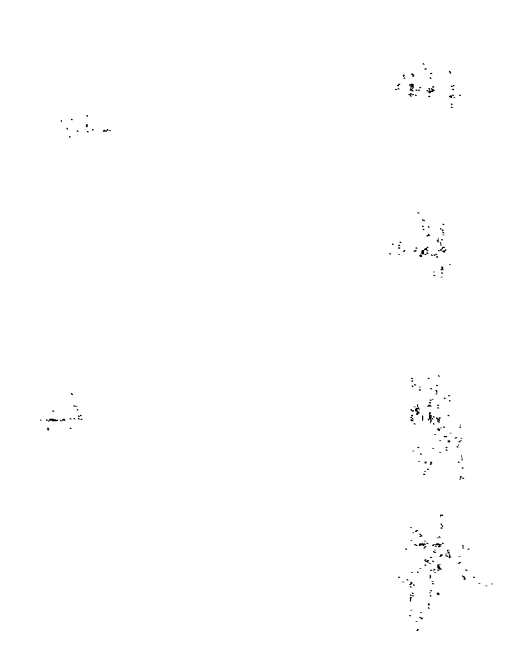
-١٤-

أيّامِي الخمسةُ في عُمَان تؤكّد لي، هي كذلك، أنّ الشّعر هو الضّوء الوحيدُ لقياس المسافة بين الإنسان والحقيقة.

-١٥-

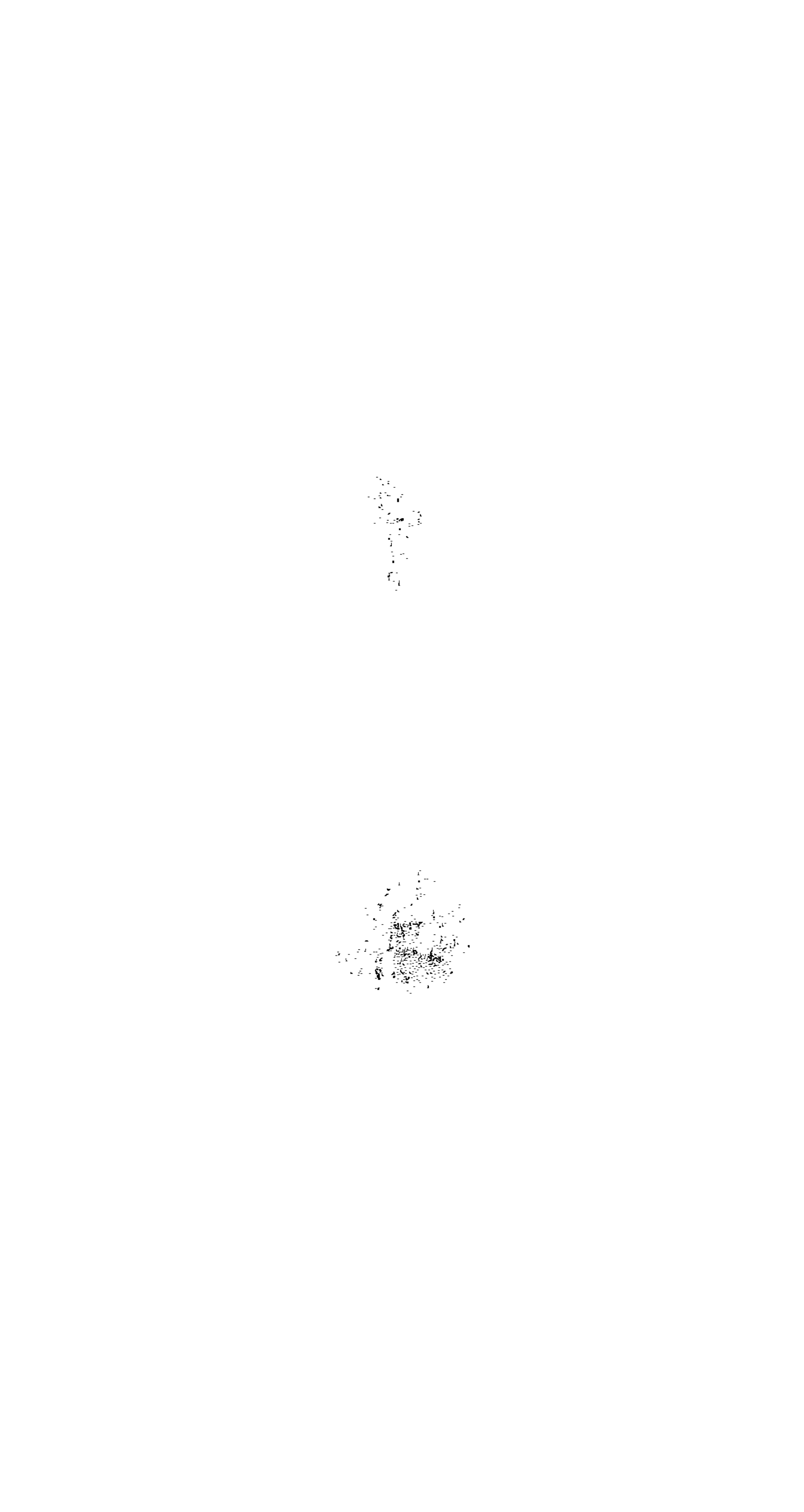
أين تَذهبين، أيّتها السّعادَةُ المسافرة؟

تَنبّأْ عَنّي، أيّها الفَجْر.





جَذْرُ السَوْسَن



جَذْرُ السّوْسَن

I. بيره مَه كرون

الجبلُ الشيْخ في السُّليمـانيّة يلبس عبـاءةً من الظلّ والضوء ويلوّح للفرات.
أنظر إليه في مـاء يتدفّق من جِرارِ غيمٍ
ينزلقُ فوقه على سلالم من حبالٍ بيضـاء.
أنظر إليه وأقرأ ذروات الأفق.
إنْ كنتَ صديقـاً، فسوف يسبقُكَ منـاديـاً: يـا أخي.
هو ذا يربِّتُ على كَتِفَيْ أرضٍ تنبسطُ أمـامي، وكلّ مكـانٍ فيهـا عُرسٌ للجسد.
قلتُ له: أحبُّ شيخوختي، غيرَ أنّني أشتهي الآن أن أعود طفلاً، أتعلّم كيف ألعب حقّاً مع الثلج والغيم.
وقلتُ لنفسي: أتخيّل، إذاً، خيمةً آخذ إليها قوافلي كلّها من الشعر والحبّ والصداقة،
وأصطحبُ أشيـاءَ لا أسمّيها لكي تظلّ أسراراً أبعثرهـا في القرى والمدائن، حيث يرغبُ المعنى.
كنتُ قد استيقظتُ بين قافلةٍ من فراشاتٍ تلتهمُ رحيقَ الحقول.
واستيقظَتِ الكلمـاتُ كمثلِ عـاشقـاتٍ فَكَكْنَ أزرارَهنّ: في هذه الكلمة يختبئ وادٍ، في تلك مَجْثَمٌ لكواسرِ الجبال. وتكمن في بعضهنّ أعشاشٌ لغرائب الأجنحة.
وكانت كلّ لحظةٍ إبريقـاً لمـاء الشهوة.
مراراً،
أخطأتُ في الأحلاف التي كنتُ أعقدهـا مع الهواء، وكـان الهواءُ يخفّفُ عنّي هذا الخطأ، قـائلاً عن نفسه: أحتـاجُ إلى التشرّد والضيـاع لكي أُحْسِنَ الحبّ.

ألهذا أحبّ غالباً ما لا أعرفه؟ ألهذا أُسَرُّ، غالباً، عندما أسمع يقظةَ الجنون تسخر من وسادة العقل؟ ألهذا تكون، غالباً، ريشةُ السؤال عيناً على عروش اليقين؟

لكن،

ألَن تستسلمَ، أخيراً، إلى الحِبْر،

أيّها الشّرِسُ الشّفيعُ، أيها المستحيل؟

II. عُمَري خاور

باكراً، كما ينهض الفجرُ من سريره، ويخرج لابساً معطفَ الشمس،

ذهبْنا إلى حَلَبْجة. رافقتنا ذِكرى مرشوشةٌ بسائلٍ كيماويّ،
كُنتُ أنظرُ إليها تلتهبُ في ذاكرة الحقول. رافَقَنا سحابٌ يتقطّع،
ينفصلُ يتّصلُ، ويهبط كأنّه شهيقُ الرّياح وزفيرها.
وقلنا للهباء الذي تحمله ريحُ الجنوب: رجاءً، أرْجئْ هبوبَك.
الطّريقُ بيوتٌ كمثل تضاريسَ في عَضَل المادّة. رأيتُ الطبيعة
تغسلُ في هذه البيوت نهديْها وقدميها. رأيتها تتّكئ على العتبة.
تُسْدِلُ شعرَها الطّويلَ وتسلّم على أبنائها الغادين الرائحين.
الطّريقُ أطفالٌ يُزنّرون الشجرَ بأحلامهم.
الطريقُ جراحٌ نازفةٌ في هياكل التّراب.
الطّريقُ صمتٌ تتقوّسُ فوقَه خاصرةُ الفضاء.
فجأةً حلبجة: عُمَري خاوَر –
سمعتُ الصورةَ. رأيتُ الأصوات.
وخِفْيَةً، كان الحجرُ يبكي.
وفي مسافةٍ تنكمِشُ في برعم زهرةٍ، بدت الشمسُ كمثلِ
تجويفٍ أحمرَ في جسد النّهار.
وكانت الحقول أسرّةً تنطرح عليها سلالمُ العذابِ، صعوداً إلى المَجَرّات.
عُمَري خاور –
رعبٌ في الحِسّ والمخيّلة، في الحدسِ والتّنفّس والنُّطق. هَولٌ
يتمدّد على التراب في أشكالٍ ومجسّمات يرتعش فيها الفلَك،
ويتبلبل المعنى.
كيف يُمَسمَرُ الإنسان على دريئةٍ اسمها القتل؟
كيف تكون الجمجمة شعاراً للوطن؟
المعنى؟ من يقدر، من يعرف أن ينفخ في صُور المعنى؟
واختلط الموتُ بالحياة والتبس كلٌّ منهما عليّ. ورأيتُ الموتَ
يدخل في تحوّلاتِ التبست هي كذلك عليّ –

موتٌ يقاتل الموت، موتٌ قمرٌ وشمسٌ في فراشٍ واحد. موتٌ ثقبٌ في جسم الموت.
موتٌ يقظةٌ في الموت. موتٌ رئةٌ للحياة. موتٌ عيدٌ للموت. موتٌ قبور أطفال وقبور أنفال. موتٌ نردٌ. موتٌ دمية. موتٌ خريطةٌ للمدارات. موتٌ حقلٌ وزرعٌ وحصاد.
موتٌ ينبوعٌ في جبلّة الرمل. موت سلّمٌ للموت. موتٌ شاطئٌ. موتٌ شراعٌ ومرساة.
موتٌ فرسٌ فارس. موتٌ سخريةٌ. موتٌ عناقٌ. موتٌ جالسٌ بين يدي طفل. موتٌ يستحمّ في بحيرة الدمع. موتٌ أسيرٌ آسرٌ، قتيلٌ قاتل. موتٌ فأسٌ وقيثار. موتٌ يرقص مذبوحاً. موتٌ يغنّي بالكردية، ويتذكّر بالعربية.
موتٌ بغداد وأربيل في جبّةٍ واحدة.
منْ قال هناك مَهدٌ للحياد، والأشياءُ هامدةٌ فيه؟ الأشياء سواء كانت غباراً أو قمراً، وردةً أو سرّةً، أو كانت أفراحاً أو تباريحَ، تنام وتستيقظ في فراش البصر، وتحت غطاء البصيرة.
هكذا لا تنام حلبجةُ وإن خَيّلتِ النوم. دائماً شطرٌ منها يعانق أواخر الليل، وشطرٌ يعانق أوائلَ السّحَر. دائماً تطلع منها شمسٌ، وينشقّ فيها قمر. دائماً، ترافقها جوقةُ أشعّةٍ مما فوق النسيان، ومما بعد الحاسّة.
حَلَبْجةُ حقلُ موتٍ مسكونٌ بمحراثٍ اسمُه الحياة.
* كانت الكواكب تسير نحو أوجها، في عربةٍ تجرّها خيول الهواء. وكان الشجر يمسح الحزن عن وجهه بمناديلَ زرقٍ بيضٍ، فيما تتحوّل البراعمُ إلى أقلام تكتب المراثي لأطفالٍ احترقوا. آثرتُ ألاّ أفتحَ خزانة الأيام الملأى برسائل كتبتها نساء ذوّبتهنّ آلة الكيمياء.
* سياجُ الرمز حول المقبرة الجماعيّة يتفجّر صوراً/
تنحني نجمةٌ لكي تكتب اسمها على قبر امرأة.
تَغلغلْ أيها الشعر في تخاريم المكان،
تقلّبْ أيها الفكرُ في خفاياه.

ترك الموتُ أوراقه في دُرجْ الزمن وائتمن عليها الريح.
أغلقت المقبرةُ دارها وأخذت تقرأ رسالةً كنتُ كتبتها إليها.
* قبورٌ نُقش عليها:
«يستطيع القصف الكيميائيّ أن يقتل كلّ شيءٍ
إلاّ الحبّ».
* ماذا تقدر حلبجة أن تفعل من أجل بشرٍ يحملون أفكاراً بلا مناخٍ، ولا أبجديةَ لها؟
أفكارٌ تنخسف كمثل قصورٍ تهرّأت، والراياتُ خِرَقٌ لتنظيف الدبّابات والمدافع والطائرات. وها هي الشعوبُ اقتتالٌ، والقبائلُ أرزٌ يُنثَر في المعسكرات. وليس في الأفق إلاّ سيولٌ من اللهب تتفجّر من أتون المذاهب.
وكلّ جمالٍ ملعون.
إنّه الحاضر يرنّ كمثل أجراسٍ ممّا قبلَ النّحاس.
إنه العصر تشنّجٌ لا يلد إلاّ الطّغاةَ والغُلاةَ والشّتات.
صحيحٌ أنّ الريحَ تهبّ قويّةً، لكن يبدو كأنها تهبّ دون أن تلامسَ أيّ شيء.
تعبر فوقنا، تعبر فينا، لا تصادف إلاّ الرمادَ والغبار. كأننا اللاشيء في يد الشيء.
وماذا تقدر حلبجة أن تقول لأولئك الذين يقولون:
يكفي لكي تغيّرَ العالمَ،
أن تغيّر ثوبك؟
* يقول عمري خاور:
لا يكفي أن يكون لك شكل الإنسان،
لكي تكونَ إنساناً.
* قولي داليا، كيف حدث أنّ قمر حلبجة اختبأ مرّةً بين نهدَي امرأةٍ كانت تُحتَضَر
مديرةً وجهها إلى قبّة الكون؟
كيف حدث أنّ الأشياء كلّها كانت تبكي كمثل الأطفال؟
داليا، لا بدّ للمرأة من أن تبتكر اسماً آخر لما يُقال له الواقع، ولما

يقال له الوهم.
لا بدّ من أن تصنع سفناً ومراكبَ للحبّ تطلقها دون ربابنةٍ ودون أشرعةٍ في أمواج الحبر واللون.
* كيف أخرج من حلبجة؟
كان الشجر الذي احترق يصنع من رماده بيتاً للعشب.
في كلّ غصنٍ في كلّ شجرة،
شفتان تقرآن، وعينان تبكيان.
ورأيت الأبجدية الكرديّة تتطاير من الأنقاض والأشلاء، حرفاً حرفاً، وصورةً صورة،
كمثل ذرّاتٍ من غبارِ الطّلْع.
كلاّ لا تقدر القصيدة أن تقف على الورق لكي تحيي حلبجة.
لتقفْ إذن على جبين العالم.

III. الأمن الأحمر

أبجدية التاريخ مرايا مكسّرة:
قِطَعُ زجاج تستغيث –
اطلبوا من العذاب أن يهدهد الطفولة،
اطلبوا من العِطر أن يرسم خرائط الورد في أجسام النساء،
اطلبوا من العين أن تتوسّل النهار لكي يكتب تاريخ الليل.
وانظروا – في كلّ زاويةٍ من الأمن الأحمر
سؤالٌ ينعصر العِراقُ بين أسنانه.
ممرٌّ رواقٌ تحيط بك، فيما تعبره، قطعُ زجاجٍ – مرايا بعدد الكُردِ الذين أنفلهُمُ
الطغيان:
مئةٌ واثنان وثمانون ألف قطعة.
في سقفه تتلألأ خمسة آلافٍ من المصابيح بعدد القتلى الذين خلّفهم القصف الكيماويّ.

لم تعد بناية الأمن الأحمر، بفعل هذا الرّواق، مجرّد كهوفٍ تغصّ بأجسام عُلّقت أو صُلبَت أو مُزّقت. تحوّلت – صارت عملاً فنّياً لتمجيد الإنسان، ومنارةً لأخلاق العمل والنّضال.

كان الرواق ممرّاً مفتوحاً على العذاب، وصار اليوم، بفعل الفنّ، رواقاً مفتوحاً على الحريّة. وكلّ ما كان رمزاً للموت أصبح رمزاً للحياة: أدوات التعذيب، زنازينه، مكبّرات الصوت، أجهزة التّسجيل الصوتي التي تبثّ أصوات الأطفال والنساء والشيوخ، المدافع والرشاشات، إضافةً إلى هدير الطائرات.

وقال مهندس الرواق: لم يكتمل التسجيل بعد. وسوف تُوضَعُ في الزوايا تماثيل وهياكل تقول: هو ذا الطغيان والبطش، هو ذا الدمار والعذاب. هكذا، تدخل الآن إلى بناية الأمن الأحمر، كأنّك تدخل إلى بيت للفنّ.

• الكرديّ مبعثرٌ في الآخر (أذلك انتصارٌ أم انكسارٌ؟) سواء كان التاريخ هو الذي يبعثره، أو كانت القوميات والعصبيات والخرائط والسياسات.

* الكرديّ آخرُ لذواتٍ متعددة - عربية، تركية، فارسيّة (أذلك امتلاءٌ أم فراغ؟) كلٌّ منها تحاول أن تنفيه.
لكن أليس نفي الآخر نفياً للذات؟ أليس هذا النفي شكلاً آخر للموت؟
* لكن، ها هو التاريخ - معموراً بالحبّ والعمل، يغيّر صورة المكان.

IV: ملكندي

ملكندي – تَنْبَعِث أصواتٌ من لامكانٍ من الأمكنة كلّها. خرافُ رعاةٍ يقيمون في الظنّ، تغزل بصوفها الملوّنِ الأبواب والواجهات.
لا إشارة غيرُ قمرٍ لا يُرى، مع أنه يُشير ويتمتم.
خطواتٌ تأتي وتذهب على البلاط والترابِ تُفْلِتُ عُنوةً من براثن الحكمة العتيقة.
وبين برج العذراء وبرج السرطان يوزّع الفلك أوراق الحظّ.
كلّ شيء يتدثّر بهباء مشحون بكهرباء اللحظة. أطفالٌ يعرفون كيف يعجنون الطائرات الكيماويّة بغبار أقدامهم، وكيف يرفعون رايات الصخب الذي يرفع راية اللعب. الطعام المفضّل هو دهن الزمن، والزمن مربوطٌ بخيوط تتدلّى من النسيج الأزرق السماويّ.
تكنس الشمس كرسيّها المتنقّل وتسير حافية القدمين. وكلّ شيء يركبُ قطاره متّجهاً إلى المحطّة الأخيرة: الليل.
ملكندي – أشباحٌ من حلب، أطيافٌ من دمشق كمثل شواهد لقبورٍ تتحرك في الفضاء.
والحركة ابنٌ ينتهي وأبٌ لا نهاية له. وثمّة عطرٌ يرشح من قوارير يباركها إسلام الفقراء. ترى نفسك هنا، وترى ظلالاً لها تلقيها غيوم الوسوسة. وغالباً يغريك جذبٌ سرّيٌّ لكي تحرّك يديك محاولاً أن تلامس طيفاً، أو تمسك بأكمام شبح. وتشعر كأنك الغائر والحاضر في ثوب واحد.
قيصريّة النّقيب القبابُ الأبواب القناطر بساتين ألوان وخطوط. وليست الشوارعُ رجاءً ولا دعاءً. الشوارعُ أعيادٌ للمادّة تأخذك من زقاق إلى آخر، مصغياً إلى جسمك تتحرّك فيه أغصانُ غابةٍ إسمها الغيطة. عطّارون، ساحة الشيخ محمود أو ساحة السراي. كتبٌ يتصدّرها هيغل ونيتشه. وفيما تسأل عن النشر وحقوقه وحريّاته، يتغيّر المشهد:
نساءٌ ينتثرن وردةً وردة.
لكلّ نجمةٍ جدائلُ تتدلّى من حبلٍ غير مرئيّ. للأخت الكبرى،



الشمس، خفٌّ أبيض صنعته يدٌ كردية، وبنطالُ جينز صنعته يدٌ أخرى. اجلس أيها الوقت على مقعدٍ حجريّ أو خشبيّ، أو اجلس على بساطٍ صوفيّ أحمر. شهوةٌ هناك في حانوت مستطيلٍ تطوّق بأهدابها وردة الجنس. من حانوت آخرَ مدوّرٍ، تخرج روائح قرفةٍ ويانسون وأنواعٍ أخرى من البهارات والرياحين. سوقٌ تخفق فيها الأقدام كأنها تعجن طينة الأزمنة. صورٌ فوتوغرافية تتلألأ، أو تومئ، أو ترقص. جرائد ومجلات تملأ فراغاً يظلّ فارغاً. السماء مظلاّتٌ مثقوبة، والهواء يتأوّه على طيورٍ قُصَّت أجنحتها. أصواتٌ تبتلعها حناجر الممرّات.

إنها الحياة اليوميّة تحتضن جراحها، تكوّن دروبها وتعيد التكوين. ماءٌ عابسٌ يغيب في ماءٍ ضاحك. خطواتٌ تعثّرت تنبعث في خطواتٍ تثبت وتتقدّم. إنها شهوة الحياة تستوي على عرشها. لا نعم في المطلق، لا كلاّ. يمكن الكلامُ أن يكونَ جرحاً. يمكن الجرح أن يكون أفقاً. ضع رأسك على صدر الشمس. إنها الأبدية في هيئة سروالٍ فضفاض.

مقهى الشعب

(عمر شريف محمد)

يستقبلك صاحب المقهى. مرحّباً كأنه يفتح صدره لاستقبال أحبّائه.

النرد، الدومينو. مثقفون، كتّاب، شعراء، فنّانون، صحافيّون، إعلاميّون، قرّاء.

أوركسترا واحدة وإن اختلفت اللغات.

قيثارٌ بأصواتٍ متعدّدة تتموج بين المقاعد وفناجين الشاي.

على كل مقعد ذاكرةٌ تركت حزنها في العراء، في صدر شجرةٍ أو في عنق يمامة.

يبدو الأمل خيّاطاً يفتق الليل ويرتق النهار. ويبدو الزمن صورةً تتململ منتظرةً معناها لكي تنطبق عليه.

المقهى أكثر مما هو. مسرحٌ – اسمٌ آخر لفضاء آخر، تنحدر فيه

على أدراج الذاكرة صورٌ للشعراء الكُرد –
بابا طاهر الهمذاني، الملاّ أحمد الجزيري، أحمد خاني، ملاّ خضر نامي، سالم، مولوي، الحاج قادر الكويي، مَحوي، بيره مرد حمدي، أحمد مختار، فائق بيكه س، نوري الشيخ صالح، عبدالله كوران، وآخرون ليس شيركو بيكه س آخرهم،
فيهم وبهم تتفجر كوامن الطبيعة الكردستانية. فيهم وبهم يُقرَأ الكون بعين الجمال والرغبة والحبّ، أو يُرسَم بحبر الأنفاس.
وتذكّرنا كتّاباً يتحدّثون عن الثقافة كمن يسبحون في الكتب، ويقرأون في الماء.
وكنّا نمزج بين الظلّ والضوء: أيّهما الخبز، أيّهما الملح – فيما نتقاسم الرغيف الأخير الذي كان يخرج آنذاك من تنّور الأمل.
كان الدّخان كمثل شرطيّ يطارد الهواء. وكنت أتغلغل سرّاً في ذلك المقهى الخفيّ داخل المقهى –
رأيت كيف تزرقّ الرُّكب ركوعاً على حصيرة الدقائق،
وكيف تُخرِجُ السماء عناكبها باسم المستقبل، (في روايةٍ لبعضهم)، لكي تبني بيوتها على وجه الحاضر.
وسمعت من يقول: ينبغي أن نبتكر سماواتٍ أخرى خارج السماء.
أعطنا شاياً يا محمّد وليكن شعبيّاً.

أخرج من المقهى. امرأةٌ عابرة، رجلٌ عابر:
جسمها مليءٌ بالعيون،
جسمه مليء بالطبيعة.
* هل الفراغ توهّمٌ؟ أليست لفظة الفراغ هي نفسها فارغة؟ أحسستُ كأنّ المقهى يطرح عليّ هذين السؤالين. وأجبت في نفسي:
* لا تَعَيُّنَ لما لا تراه العين.
* كوابيس جنودٍ وكيمياء ترجّ تقاطيع المقهى.
* يمزج المقهى بين سلطة العمل وفتنة الكسل:
ألهذا لا ينام الكسل
إلاّ في أحضان عملٍ آخر؟

* يقول المقهى:
«أنا المدينة الباحثة عن نفسها أبداً،
وأنا فيها اللغة التي تلهو، لكيلا تلغو».
* إبريق الغيب في المقهى
ينكسر مسكوياً في شاي الواقع.
في المقهى/
وضعنا الموت في قفص، وأطلقنا طيور الحياة.
وقال صوتٌ مفرد:
إن كانت نوافذ المقهى ماكرةً،
فلأنّ الهواء يحتفي دائماً بتنصيب نفسه ملكاً عليها.

*

تلك اللحظة،
دخل التاريخ في الشاي، دخل في ماء الطبيعة، بعد أن كان قد دخل في ماء الحبّ.
تلك اللحظة،
كان التاريخ يتمرّد على عباءة القبيلة، ويحاول أن يصير بيتاً عالياً في مدينة الكون.
تلك اللحظة،
عقد التاريخ حلفه مع الفنّ،
وأخذ يبتكر الأجنحة.

VI. عينكاوا

أزمنةٌ أنظمةٌ شعوبٌ تاريخ أوراق إباداتٌ جيوشٌ
أنهارٌ حكمةٍ مضايق برازخ أمثالٌ مواعظ رسومٌ
تماثيلُ هياكل قبابٌ مرايا صروحٌ شواهد
جراحٌ جسورٌ ملحٌ – دمٌ غرفُ قتلٍ تتنقّل بين شرايين التاريخ
كهوفٌ سُمّيت كواكبَ مزامير حدودٌ هِجراتٌ طرقٌ مدائن
منابر خطب أسوارٌ ذاكرة
وما ذلك الأفق الذي يعرجُ
كأنه لا يزال يتنفّس السراب؟
– هذا كلّه
أجزاء وفواصلُ من مقدّماتٍ
عليكَ أن تتذكّرها فيما تتقدّم نحو عينكاوا.

كنتُ رأيتُ في أربيل، القلعة – المتحف، كيف تخلق اليد الكرديّة داخل المتحف مُتحفاً آخرَ لجمالٍ بريٍّ باهر، بسطاً وثياباً وعباءاتٍ وأشياء أخرى فريدة كثيرة ومتنوّعة. وكنت رأيت حديقة سامي عبدالرحمن الذي قتله العنف السلفيّ.

سلّمت فيها على تمثال الجواهريّ، وعلى نحّاته المهاجر سليم عبدالله. سلّمت كذلك على تمثال الشاعرة المؤرّخة مستورة أردلان.

متحفان – واحد في الهواء الطّلق،
وآخرُ حميمٌ،
يتعانقان في بهاءٍ باذخ.

التقيت في عينكاوا أهل الكنيسة وأهل الكتابة – سرياناً كلدانيين وآشوريين. وزرت مركزاً للصابئة المندائيّة.

أدهشني، خصوصاً، فيهم جميعاً أنهم لا يعيشون، ولا يفكّرون، لا يكتبون، كما لو أنّ شيئاً لم يكن قبلهم. على العكس:
ما مضى،
ما هو حاضر،
ما سيأتي

وحدةٌ تتلألأ في وجوههم،
وفي كلامهم وفي حضورهم.
أربيل – عينكاوا: الاختلاف المؤتلف –
السماء غيبٌ للحلم المشتَرَك،
والأرض بيتٌ ومدينة للعقل والعمل،
للجميع دون تمييز.
وخطر لي أن أتساءل: ماذا حدث، ماذا يحدث؟
هل التاريخ رجلٌ نائم، لم يمت، غير أنه لم يعد قادراً أن يستيقظ؟
أم هو امرأةٌ آسرةٌ،
لم يعد يعرف الفجرُ نفسهُ أن يتحرّر من أسرها؟
حيّيتُ مار أفرام، وكنت قرأت أحيقارَ في قوله لابن أخته نادِن:
«خيرٌ لك أن يضربكَ الحكيمُ عصيّاً كثيرة، من أن يدهنَك الجاهلُ بالطّيب.»
«إذا وقف الماء دون أرض، أو طار العصفورُ دون جناح، أو ابيضّ الغراب كالثلج،
فحينذاك يصير الجاهل حكيماً».
«لا تُطلق الكلمة من فمك حتى تروزها في قلبك، فخيرٌ للرجل أن يعثر في قلبه، من أن يعثرَ في لسانه».
* لماذا بدأت الذاكرة هي نفسها تعلّم القتل؟
لماذا أخذت الذاكرة هي نفسها تمارس القتل؟
* أيّامٌ تحوّم فينا وحولنا
كأنها طيورٌ عمياء.
* أفكارٌ –
جراحٌ عميقةٌ في رأس اللغة.
* بلادٌ كمثل خاتمٍ
في إصبع السماء.
* أفواهٌ مغلقةٌ بسلاسل ليست إلاّ كلمات.
* المطلقُ مسمارٌ ناتئٌ في جبين النسبيّ.

لماذا تُغلق أيها المرئيّ،
أبوابك في وجه أخيك اللامرئيّ؟
* ماذا يؤكّد لك أيتها اللغة، أنه لم يعد في ينابيع المعرفة
ماءٌ يكفي لكي يطفئ نيران الجهل؟
* يوماً ستثأر الكلمات من كتّابٍ
حمّلوها أفكاراً لا تليق بالأبجدية.
خرجنا من عينكاوا، ترافقنا موسيقى طالعةٌ من قدّاساتٍ يقودها
مار أفرام. قال قدّاس:
يحدث أن تحبّ الوردةُ يداً قدّمت لها الماء،
يحدث أن يقطع الإنسان يداً قدّمت له وردة.
لكنْ يحدث أيضاً أن يتمرّد الباب على العتبة لكي يستقبل ضيفه
الهواء.
وقال قدّاس:
إذا قدرتَ أن تتفيّأ ظلّ الفراشات،
فذلك يعني أنّك قادرٌ أن تطير بأجنحتها.
وسأل قدّاس:
ما إسم هذه الشرارة التي تخرج الآن من تلك الغيمة العربية،
وهل البرق أبٌ لها أو نسيب؟
شرارةٌ تذكّر بذلك المساء عندما غسلت حوّاء نهديها
بضوء هلالٍ في يومه الأوّل.

VII. مثاقفة

* من أين لك القدرة المتواصلة على الكتابة في واقع يلتهم القدرة حتى على التخيّل؟

– أكتب كما لو أنني أمحو عتَباتٍ، وأقتلع أبواباً.

* نعرف أنك تنفر من المكان في هذا الواقع. كيف تسوّغ مأواك فيه؟

– أقيم فيه كأنّني الصاعقة التي ترجّه أبداً.

* قل لنا إذاً أين يطوف عقلك؟

– في الأطراف القصوى، في لُجَج ما يختمر ويتكوّن، بعيداً عمّا يسود ويهيمن.

* وما المكان الذي يُسمّىٰ الوطن؟

– كما يقول الفيلسوف الفرنسي عمانويل ليفيناس:

«الإنسان أكثر قداسةً من الأرض ولو أنها مقدّسة. أمام الهجوم على الإنسان، تبدو هذه الأرض حجارةً وخشباً».

* هل العالم مادّة اسمها الخطأ؟

– حتى لو كان ذلك صحيحاً، فمن الممكن تصحيح هذا العالم بالإنسان – هذا الكائن الذي هو نفسه معجون بهذه المادة، وليس هو نفسه إلاّ حفنة من التراب.

في الإنسان سرٌّ فريد هو أنه أبعد من حدود جسمه، وأعلى مما ينجبل منه هذا الجسم، خلافاً للشيء المحدود بما هو، وضمن ما هو. بهذا السرّ يصنع الإنسان نفسه، ويصنع الحضارة، ويغيّر العالم.

* إن كانت له كواكب ومدارات،
فلأنها تنحدر من سلالة جراحه.

* لفرحه عبقريةٌ خاصّة
لا تبتكر، غالباً، إلاّ الحزن.

* البيت يتهدّم –
يحاول غباره أن ينجوَ
طائراً على جناحَي فراشة.

* الحلم في الشعر ماءٌ
وفي الفكر وردةٌ.
* يصعد على سلّم الرّؤيا محفوفاً بالعتمة،
ويهبط مغموراً بالضوء.
* باب اللاشيء
مفتوحٌ دائماً على كلّ شيء.
* سأله الضوء:
«هل تسمع صراخي
عندما أخرج من رحم الشمس؟».
* الذاكرة كتابٌ مفتوح،
اقرأه إن كنت فرِحاً
وأغلقه إن كنت حزيناً.
* قال لأقفاله: أنت المحيطات،
وقال لأمواجها: خذي المفاتيح.
* يكتب كمن يزرع وردةً، لغاية واحدة:
أن يلبّي رغبة العطر.

VII. أنوثة

كان إيقاع قدميه – عَنَيتُ التاريخ، يعلو هانئاً حول صخَب فتياتٍ وفتيانٍ يقتحمون محيطات الرغبة.

زهوٌ آخر أن تفتحَ الأنوثة الكرديّة بيتها لأختها العربيّة، ولأختها السريانيّة ولأختها الصابئيّة المندائيّة.

زهوٌ آخر أن تتلاقى أطراف الأنوثة في العراق كما لو أنها بيتٌ لإيلافِ التعدّدية العراقيّة.

ضمّي إليكِ، إذاً، أيتها الأنوثة جسدَ الفجر، وقولي له أن يرسمَ وجهَك على ذهبِ الوقت.

مثلك أفكر في حياةٍ تؤاخي بين السماء والسرّة، وتجعل من الأرض سريراً للحبّ.

مثلك أقف على شرفة الكون حيث يضطرب القمر تحت أهدابك العاشقة، مثلك، أرى كيف ينسكب الزمن في موسيقى الدمع الذي لا يزال ينسكب حزناً على شقاء العالم،

وأرى كيف ترسمين للمستقبل شرفاتٍ تتعانق فيها أطراف الأرض.

وسواءٌ أيتها الأنوثة الكرديّة، فقدت حبيبَك في كهوف الأمن الأحمر، أو في حقول حلبجة أو في قمم الجبال فأنت الوردة التي يتنشّقها الشعراء والعشّاق، وأنتِ الجراحُ التي يتسلّحون بها لمحوِ آلات القتل.

وكنت رأيتُ في الجامعة قناديلَ ليست إلا وجوه فتياتٍ رأيت فيها ما يجمع تقاليدَ الماضي في حقائب تُقذَفُ إلى الفراغ حيث لا مكان إلاّ للفراغ والريح ولذلك الهباء الذكوريّ: ضلع آدم.

IX. عصف

ثمّة بشرٌ لا يزالون يقتلون البشرَ بدرهم يسندُ عمودَ السماء، أو بسيفٍ يطيلُ قامةَ العرش. غيرَ أنهم يفعلون ما يفعلون كأنهم يحرقون الكهرباء بالقشّ، والرّعدَ بالريشة.

أو كأنهم ينتزعون من قميص الليل أزراره الكوكبية فيما يُطلقون الرصاص على النجمة التي سمّاها الفلكيّ العربيّ الزُّهرة.

وها هو الاحتمال كمثل ريح عاصفةٍ تزعزع بيتَ الواقع، وتوشك أن تهدمه. من يقدر أن يتنبّأ بنيّة الرّيح؟ من يعرف ماذا تُضمر العاصفة؟

وتلك هي بيضة الزمن مضغوطةٌ دائماً بين الأصابع
ولا مفرّ من أن تنكسر: ما في البيضة غيرُ الإرادة –
الهباءُ للهباء،
والجَذرُ للجَذر
هنا وهنالك
في خطواتٍ على حبل العمل – ممدوداً
فوق هاوية التاريخ.

مَنِ الصديقُ في هذا العَصْفِ الذي يهزّ الخرائط؟

الصحراء واقعٌ، وليست الصخور ألفاظاً، وها هي الأيامُ رياحٌ تتلاقح.

المشهدُ حبرٌ لكلّ افتراضٍ ولكلّ احتمال، –
الهدهدُ ثائرٌ على سيّده،
وليست البومة الحكيمة عمياء.

بَنَتِ العواصفُ منازلَ هدّمتها. كتب الجسدُ نصوصاً مزّقها

وما هذه اللهجاتُ التي تهرول في شفاه الأيام جامحةً بين ثالوث المتوسّط المحيط الهادئ المحيط الأطلسيّ؟

ملائكة الظنّ تسيل في دمٍ بلون النبوّات.

الفسقُ يمجّد براءة الفصول. الفصول تتعثّر بأشلائها فيما تمجّد براءة الشمس.

صقيع أفكارٍ يتغلغل في خطوات الشوارع. العابرون جراحٌ والزمن شظايا زجاجٍ والعالم سيلّوفان.
ربّما يحقّ ليَ أن أصغي إلى الأنوثة الكرديّة:
«كلاّ لن أفارقَ الأنوثةَ العربيّة في بغداد، ولن أحتضنَ إلا الضوء وصداقة الضوء».
ربّما يحقّ لي أن أفكر وأرفض أن تكون لي أفكارٌ خواتمُ
ربّما يحقّ لي أن تظلّ أفكاريَ امتحاناً لنفسي وللحياة والواقع.
لكن،
ينهض في مشاع البرازخ تورّمٌ يكسر فرجارَ النّظر ويهجم جالساً على بَرْذَعةِ حصانٍ ذرّيّ.
تورّمٌ يتكدّس في طويّة العالم.
هل أغلق السماء؟ هل أسمع، هل أطيع هلوسةَ الجذبِ الملائكيّ؟
كلّ ملاكٍ دسيسةٌ، وكلُّ لذّةٍ شَعْشَعة.
خذني إليكَ يا جذرَ السّوسن، واسطعْ في خلاياي.
اللاّنهاية تستيقظُ في تَداخلِ ضوئيٍّ مع الأنوثة، وتستبطن جسدي.
أعطني أيّها الصلصالُ، يا ترابَنا الحيُّ، أن أُبَسْتِنَ المسافات،
وأن أخالط عنّابَ السرّائر.
الحضورُ فيك فاتحة البصرَ،
والغيبُ نرجسُ البصيرة.

X. نيلوفر

بين ١٤-٢٤ نيسان ٢٠٠٩

كان لي داخل الليل في السليمانية وأربيلَ ليلٌ آخر، ليلٌ كان يسبقني دائماً –
يقفز من سريري ويخرج من النافذة
لكي يُمسكَ بزنّار الشمس،
وهي تنهض من سريرها.

كان لي ضوءُ قمَرٍ خفيٌّ يتيح لي أن أقرأ ما كان يكتبه النيلوفر في بحيرةِ الظنِّ، وأن أقرأ كلَّ شيء حتّى تجاعيد العشب.

وعندما كان الأفق أمامي يرقص احتفاءً بالنباتاتِ وأريجها الضائع في الحقول، كان هذا القمر يظهر لي بغمّازتين وشامةٍ على خدّه الأيسر. إنه القمر الذي يعلّم فتنةَ الكشف.

هكذا كنت أتذكّر كيف كانت تمتزج الطبيعة والأرض – الأمّ والسماء نفسها بلغةٍ أمٍّ تتمردّ بها الأنوثة على ضلع آدمَ لكي تتساوى بآدمَ نفسه، ولكي تدعو من جديدٍ نوحاً من أجل أن يعيدَ النظر في هندسة فُلْكِه، وفي وحْلِ طوفانه.

وكانت الكلمات الأولى التي تخرج من شفاه الأشجار والينابيع تتسلّق الجبالَ لكي تتنشّقَ الهواءَ الأوّل قبل وصولها إليّ. وكان للبشر الذين التقيتهم وجوهٌ يمتزج بعضها بضوءٍ كأنّه الدّمع، ويمتزج بعضها بشررٍ كأنه يتطاير من جمر التاريخ.

وكان يُخَيَّل إليّ أنّ ثمّة صوتاً يسألني:
أنتَ، أيّها المترحّلُ، العارفُ لؤلؤَ المسافات،
أنت أيّها العابر الذي يستمسك بعروة الرّيح،
قلْ لي من أين جئتَ، ومن تكون؟

الوقتُ إناءٌ ينضح بتاريخٍ يلتهم نفسه، بأشباحٍ لها قرونٌ من الرّمل وأقدامٌ من الرّيح.

الوقتُ قصَبٌ يعطي سكّرَه للذرّة، وجذورَه للغيوم.

وقتٌ –
قمَرٌ وشمسٌ في قَرنَي ثورٍ أسود.
كيف يتغيّر الوقت؟
علّقتُ نجمةً على رأسِ نخلةٍ تحيّةً لوردةٍ تسكن في أبديّة العطر.
وسوف أحاول أن أتدبّر أمري، في ما تبقّى:
أعلنت حرباً لا تنتهي بين اللانهاية والله.
نعم، أيتها اللانهاية،
سأقيم القطيعة مع بشرٍ تتقطّع حبالُ أصواتهم بين شفتَي
تاريخ كاذب،
ولن أخلقَ على صورتكِ إلاّ شيئاً واحداً:
الشِّعر.
هكذا يُخَيَّل إليّ الآن، كأنني أتحوّل إلى جبلٍ تارةً، وتارةً إلى
بحيرة.
وفيما يبكي صفصافُ الذاكرة حول الأنقاض، تهدر حولي، في
كلّ مكان، مياهُ الولادات.
(السّليمانيّة – أربيل – باريس، ١٤–٣٠ نيسان ٢٠٠٩)

كورتي نوفا / البندقيَّة
إلى ماركو روتيلّلي

-١-

اِلْتَقَيتُ ماركو روتيلّلي في البندقيّة، ٨ أكتوبر ٢٠٠٩:
كان عطر النّساء يتجمّع حوله من جميع الجهات.
عندما افترقنا في ١٠ أكتوبر ٢٠٠٩، كان العطر نفسه يتناثرُ حوله من جميع الجهات.

-٢-

وُضِعَ للماءِ في البندقيّة أكثرُ من قاعدة. غيرَ أنّ هاجسَهُ الدائمَ هو كيف يشذّ عنها. لعلّ هذا الشّذوذ، إذا حُصِرَ الحديث في الفضائل، أن يكون الفضيلةَ الأولى لجزيرة سان سيرفولو (San Servolo)، حيث يُستضاف الفنّانون من جميع أنحاء العالم، ويحلو للطبيعة أن تكون بيتاً لِفِتْنَةِ الفنّ، وَرَحماً لماء الولادات.
ما عدا ذلك، ذهابٌ وإيابٌ في قطارات الماء.
في طريقي من المطار إلى سان سيرفولو، في مركبةٍ مائيّةٍ سريعة، كانت نوَارسُ على مدى الماء، تَسبح في نوعٍ آخرَ من الفنّ.
وكانت نوارسُ أخرى تتقاسَمُ الأعمدة التي تحدّد طريقَ المراكب:
يأخذ كلٌّ منها عرشه وحيداً، كأنّه يكتب الموجَ بأجنحته.

-٣-

(فلكٌ مسرحيّ في سان سيرفولو)

١. فلاش باك

الشّجر يسافر، تاركاً أوراقه حول جذوره، وعند عتَباتِ البيوت.
تبذرُ الرّيح في كلّ اتّجاهٍ أسناناً غريبة.
وكان القميصُ الأزرق الذي نسجه الغروبُ للأفق، يتكوّم في سَلّةِ الرّيح.

٢. مشهد

مَدّ الماءُ للشجر حبلاً لكي يعبرَ عليه نحو جزيرةٍ أخرى في البندقية. لم يستطع الشّجر أن يعبر إلاّ بعد أن قطعَ الحَبْل.

٣. ضوء/ظلّ

ليس من عادة الضّوء أن يضعَ أنفه على زجاج النوافذ. غير أنّه خرَق اليومَ هذه العادة.

٤. سحر

لماذا عندما تقف يَدُ الهواء في سان سيرفولو تتحرَّك قَدمُ الماء؟

٥. مُلْصَق

هنا، عندما يُصبح الهلالُ – القوسُ دائرةً، يكون قد صعدَ من مَرتبة الذّكورة إلى مرتبة الأُنوثة، ويكون مأخوذاً بالبحث عن سريرٍ لطفله المُقبل.

–٤–

نادراً ما رأيتُ الشعر في البندقية يضحك مُتَلألِئاً كمثل ما رأيته مع روتيلّلي في مَطعم الماَسكارون. كان الشاعر الصّيني يانغ ليان قائد الأوركسترا، فيما كانت إيلينا لومباردي تُصفّق بخفَرٍ وتبتسمُ كأنّها آتيةٌ من جَنّة دانتي.

في مطعم الماسكارون، تتقاطعُ على الموائد في قوارير الخمر، في الخبز، في صحون الطّعام وأدواته طرقٌ يحملها روّادهُ تحت ثيابهم، غالباً، وبين أصابعهم، أحياناً.

وفيما نرى الزّمنَ يخوّض في الصّحون التي ابتكرَها الخَزّافون خصّيصاً لأفخاذ المعكرونة النّحيلة، أو لأثدائها المدوّرة، نرى إلى جواره نساءً ورجالاً يعومون في مَوْجِ الأيّام.

ورأيتُ امرأةً يشربها النبيذ جرعةً جرعةً.

وسمعت مَن يقول هاذياً: حَتّى لو صرت شجرةً، فلن تقدر أن تفهمَ الغُصن. كلّ لحظةٍ، يُولَدُ للهواء في كلّ غصنٍ طفلٌ أخضر.

-٥-

موبجاتُ إلكترومغناطيسية

١. قطب كهربائي

أعمل دائماً في البندقيّة مع الصُّورة، وأنزوي للتأمل، في كهف المعنى.

٢. بكتيريا

المؤسِف هنا في البندقيّة أَنّ الحِبرَ لا يميّز في الكتابة، بين الجمال والقبح، وبين الصّواب والخطأ.

٣. سديم

منذ فترةٍ، لم أرَ البندقيّة. هكذا، عندما التقيتها أمس في فراشي، خَبّأتُ جسدَها في جَسدِها.

٤. جرثومة

هنا، في ساحة سان ماركو، تُفرِط اللانهاية في سرعتها.

٥. هاجس

عطِشتُ، وكلّ ما حولي ماء. لكن، لماذا عليَّ مع ذلك، أَنْ أستجيرَ بالرّمل؟

-٦-

عندما دخلتُ ساحة سان ماركو، هذه المرّة، تذكّرت الشاعر شيلي. تذكّرت خصوصاً بيانه في السَّنَة ١٨١١: «ضرورة الإلحاد». بيانٌ سَبّب له الطّرد من جامعة أكسفورد.

(للتذكير: مات شيلي غرقاً في خليج ليريتشي، في الأرض نفسها التي تنتمي إليها البندقية. وأُحرِقَ جثمانه بين يدي الشاعر بايرون).

أقول ما أقول، فيما يُخيّل إليَّ أَنّ العرقَ يتَصبّب من جدرانِ البندقية، وأَنّ من الممكن دائماً أن نخرجَ من بيت القاعدة إلى

فضاء المصادفات.
هل أترك، إذاً، لجسميَ أن يندرجَ في آلة البندقية، لكي أفهمها حَقّاً، أو لكي أراها حَقّاً؟ أخاف أن أشرب دمعي ظناً مني أنه الخمرة التي يُعتّقُها ديونيزوس.
حقاً، أكاد الآن أن أضطجع مضطرباً بين أحضان البندقيّة، وأن أسأل النساء اللاتي يُحطن بماركو روتيلّلي: هل في جسد المرأة الإيطالية شعرٌ آخر لا يُحدّد بالشّعر؟
في كلّ زاوية، في ساحة سان ماركو، سارقٌ بارع.
والعجَبُ أنه لا يَسْرق الأرضَ، إلاّ باسم السّماء.
هل أقول إذاً: المجازُ، لا الواقع، هو فضاءُ الألوهة؟
وسوف أكرر على سمع سان ماركو:
يبدو أنَّهُ لم يبقَ من السماوات السبع إلا ثلاث:
واحدةٌ انطفأت شموعها ولم تعد تعرف كيف تشعلها، واحدة نذرت نفسها لملائكةٍ بلا أجنحة،
والثالثة آخذةٌ في احتضارٍ يبدو أنه سيكون طويلاً وصعباً.

-٧-

غُددٌ بينها الغُدّة الصّنوبرية

١. ترميم

التّراب مرآةٌ للسماء. الغيم مرآة للتّراب.
قولوا، إذاً، عن النجوم إنها سلالِمُ لصعود اللّيل نحو سرير الضوء.

٢. قوس

كلّ ليلةٍ، قبيل أن يذهب الشاعر إلى النّوم، يدعو وسادته لكي تسبقه، ولكي تُغمض أهدابها عندما يدخل تحت الغطاء.

٣. مَصْهر

الكلمات معادنُ تُصْهَر في حناجر النبوّات.

٤. مجزرة

ياالهذا العالم! شريطٌ إلكترونيٌ تُعالجه أيدٍ مكسورة.
وكلٌ يصرخ: لا أريد بطاقة هوية. أريد دفتر إعاشة.

٥. هولوغرافيا

كيف تنفعل عينا الشاعر برؤية فينيسيا، وعيناها زورقان إلكترونيّان؟ والناس، زرافاتٍ ووحداناً، يستحمّون في مائها الأسود؟
كان جدُّهَا ذهباً، وهو الآن يَصيرُ ورقاً مُقوًى.
وكان الشاعر قد فتّش صناديقها وثيابَها القديمة، فلم يجد إلا خيوط العناكب. مع ذلك، لاتزال أشرعتها الغابرة تتأرجح في موج الحاضر.
هل ينبغي التأسيس لحياة جديدة: النّوم على الماء، والعمل تحت الأرض؟
ولا حيلة للشاعر في هذا الهذيان. لقد انتهى الأمر:
سبَقَ أن تَشَرَّبَتْ خمرةُ الكيمياء أعضاءَه كلّها.

-٨-

في بداية الزّقاق الصّغير كورتي نوفا Corte Nova، على الزّاوية، دكّان – مطعمٌ صغير، يمتلئ بصور تشي غيفارا.
يمتلئ كذلك بشعارات شيوعية: النجمة الحمراء، المنجل، المطرقة.
إنه مقر الحزب الشيوعي في البندقية.
مفاجأة حقّاً – لي، ولصديقي الشيوعي السابق، فوزي الدّليمي، الرّسّام الشاعر. عِش قديمٌ لنورسٍ شيخ. حَيَّينا الجالسين فيه، وردّوا التحية بغبطةٍ وبشيء من الاستغراب. مررنا في الزّقاق تحت ألوانٍ بيضاء زرقاء حمراء رمادية لم تكن إلاّ ثياباً منشورة على حبالٍ ممدودة كالجسور، تربط بين ضفتي الزّقاق. وقلنا: طوبى للفقراء: ينشرون غسيلهم تحت أهداب الشمس، ويأتمنون عليها الرّياح.

عاملٌ (مغربيّ، على الأرجح) يحمل على كتفه اليُسرى ملاكَ الحَيرة. تلى كتفه اليُمنى يحمل شُرَطيّ الهجرة، كأنّه يُدنّدن هامساً في أذن الوقت: ساعِدني لكي أغرسَ مِئذنةً في رأس الموج.
وَرّاقٌ (بلغاريّ مسلمٌ على الأرجح)، يحاول عبَثاً أَن يرسمَ البندقيّة في شكل بندقيّةٍ بلا رَصاص، أو في شكل عمامةٍ تشبه حَبّة البندق، وتذكّر برؤوس السّلاطين.
ومَن أيّ سماءٍ، تنحدر تلك المرأة (الرّومانية على الأرجح) والتي يرقد طفلها فوق بلاطٍ أسود، وتحرصُ أن تدير وجهه في اتّجاه كنيسة سان ماركو؟
ومِن أيّ معسكرٍ يجيء هذا (الصّربيُّ على الأرجح)، حاملاً جسمه في سَفينةٍ من الوَشْم؟
وما رأيكَ، أنتَ أيها الأميركي: أنتَ يا مَن تعبرُ في عربَةٍ من الجينز والعلكة وما لا يُسمَّى، مديراً سرّياً لجمعية الرِّفق بالخُبرَاء والمستشارينَ، التي يؤسِّسها حواريّو الأمم المتّحدة المهاجرة؟
المهاجرون؟ جميعاً يَجْهرونَ بصوتٍ واحد: نحن في حاجَةٍ إلى أبوابٍ ترفض أن تنغلِقَ حَتّى عندما تَرُجُّهَا الأَعاصير.
وتلك هي شوارع البندقيّة، تقلب عقاربَ الوقت في جيوب البشر، وفي خطواتهم. شوارِعُ توسّع بأقدامها حدُودَ القدّيسين، وتضيّق برؤوسها حدود النبوّات.

-٩-

تخصيب

١. استطلاع

لكلِّ فضلٍ ذنابه. ولماذا لاتزال يدكِ، أيّتها السمّاء، ممسكةً بهذا القلم الذي لا حبْرَ فيه، والذي فَقدَ خاصّيةَ الكتابة؟

٢. قَطْع/وَصْل

صار اللّيل وجهاً. صار النّهارُ قدمين. صارت النافذة سياجاً.
ونَفَدَ عطر الوردة: لم تعد إلاّ أنيناً.

٣. تنفّس

بلى، ربيت على القول: «نحن».
من الآن فصاعداً، سأقول: «أنا».
الجمع وَرَقٌ، والمفرد هو الكتابة.

٤. تلوّث

سكّينٌ ملوّثة جرحَت، وغابت.

٥. حبّ

أحبُّ هذه الوردة التي تذبل في أحضان النّافذة.

-١٠-

استيقظتُ صباحَ العاشر من أكتوبر، باكراً، استعداداً للعودة إلى باريس. لم أعرف أن أقرأ في جريدة الصّباح إلاّ أسطراً، بضعَ كلماتٍ هذه خُلاصتها:
مطعَمٌ يجلسُ في أعلى الصّفحة الأولى،
يقرأ أخبار مطعمٍ آخر
في أسفل الصّفحة.
اذهبْ يا ظلّي في غرفة نومي ولا تَعُدْ.
أعترف لك: لا أستطيع أن أفعلَ شيئاً للوقت الذي يَنْغرس في جسد البندقية كمثل جرحٍ لا يتوقف نزيفه.
قلتُ: ألجأُ إلى الغيم الذي كان يتمدّد ويتمزّق. وكانَ قد صَحّ لي، منذ أيّامي الباكرة، أنّ الغيم لا يُمطر إلاّ بِقَدْرِ ما يفكّر في أحوال البشر الذين يُولدون في الماء، ويجهلون السّباحة. هكذا تلبّسني ضَبابُ الحقيقة، وأخذَ يُمطرني هَمْساً: لَن تتعلّم في البندقيّة إلاّ ما سبَق أن تعلّمته في المدن الأوروبية الأخرى.
فينيسيا – أوروبّا: وجهٌ يقرأ، لا يقرأ إلاّ نفسه.
يالَهذا الهيكل! لا يؤمنُ بالورودِ التي لا أضراسَ لها.
فينيسيا – أوروبّا،
يالَهذا الوجود الكرويّ الذي يدحرجه النّفط

قلتُ: أكتب رسالةً إلى ماركو روتيلّلي،
ماركو،
هل سمعتَ مثلي تلك النّجمة في سان سِيزفُولُو،
تقول حائرةً: لماذا لا أعرف كيف أقرأ أبجدية فينيسيا؟
وَما هذه الفراشات التي ترتطم بعماراتٍ شبه عمياء؟ ومن أولئك الذين يكدّسون المعدنَ ويُسمّونه تِرْياقاً؟ ومن هؤلاء الذين يقولون: العالَمُ قِرْدٌ، ولا فرق بني غرابٍ ونَملةٍ إلاّ بالاسم، وها هم الملائكةُ والشّياطين شهودٌ يرقصون في جُبَّةٍ واحدة؟
ماركو،
يُسمّوننا الغُرباء. كأنّ الأرضَ لم تكن، مرّةً، غريبة.
كأنّ الفَجْرَ لم يكن مرّةً طريقاً إلى اللّيل، أو كأنّ الرّمادَ لا يعرف النّار.
غرباء – كرَزٌ يُغنّي متدحرجاً من أعالي كنيسة سان ماركو، تُصغي إليهِ الجدرانُ والحوانيتُ. تصغي إليه كذلك أقدام العابرين، ويُصغي إعلانٌ ضخمٌ لبيعِ الأحْذِية والسّراويل.
ساحة سان ماركو،
الفجر يتنفّس في سرير ماء أسود. الأفق يطيرُ بأجنحة شطآنٍ سوداء. وها هي الأيّام تَنْعقدُ خيوطاً من عناكب سوداء في سقف العالم.
المراكب آخِرُ مَن يعرف،
والبحّارة آخرُ من يعترف.
ماركو،
إنّها اللاّنهاية تتعرّى أمامنا في خُطاطَاتٍ لم تكتمل بعدُ أشكالها.
إذاً، أقول لكَ ما أقوله لنفسي:
تَقَمَّصْ الوَقت،
واقتحمْ قطارات الماء،
لكي تعرف

كيف تحيا، وكيف تموتُ
متموِّجاً.
(البندقيّة – بيروت، أكتوبر ٢٠٠٩)

غيومٌ تُمطر حبراً صينياً

غيومٌ تُمطر حبراً صينياً
(زيارة إلى بيجنغ وشنغهاي)

-١-

(١٣ مارس/آذار، الجمعة، ٢٠٠٩)

حوالي السَّاعة الثانية عشرة ظهراً، وصلت إلى بيجنغ، آتياً من باريس. كان ينتظرني في المطار، الدكتور شوي تشينغ قوه، الأستاذ في جامعة الدراسات الأجنبيَّة في بيجنغ، والباحث في الأدب العربي، والمترجم الذي وضع شعري ضيفاً بين أحضان لغته الصينية. هذا المضيف الصيني الذي يُسمّي نفسه باسم عربيّ هو بسّام، رفيع الثقافة، يتكلّم العربيّة بطلاقةٍ، كمثل أيِّ أستاذ متميّز للأدب العربيّ، في أيّة جامعة عربيّة.

رافقني إلى حيث سأقيم في «فندق الصّداقة». واقترحَ عليَّ ما قبلته فوراً: الرّاحة، والبقاء في الفندق، إلى صبيحة الغد.

من المطار إلى الفندق، واكَبَتنا على جانبي الطّريق أشجارٌ عاريةٌ إلاّ من أعشاش الطّيور مشهدٌ أعادَ إلى ذاكرتي أشجارَ القرية التي وُلِدتُ فيها، وأعشاشها.

الفندق في الحيّ الغربيّ من بيجنغ. حيّ الجامعات والمدارس والتّقنيات. الطّقسُ مائلٌ إلى البرودة، تتنقّل في خطوات ريحه قناديلُ منطفئة لأباطرةٍ يبدون كأنهم لم يموتوا إلاّ في الكتب.

الفندق جميلٌ كمثل كتاب قديم من الصُّوَر. زخارفُ وألوانٌ أحسست كأنّها تتصادى مع زخارف الأندلس وألوانها. إحساسٌ لا أعرف كيف أفسّره.

تجلس معي الدّقائق في مقهى الفندق كأنها خيولٌ أضناها التّرحل. خيولٌ نسيت حَتّى الحَمْحمة.

تُحدِّق فيَّ الفتاةُ – الدُّمية الجميلة، عاملة المقهى. أجلس على آخر كرسيّ في آخر زاوية أقرأ وأكتب وأشعر كلّما نظرت إليها

كأنها تقول في ذات نفسها: مجنونٌ غريبٌ آخر.
وردةٌ في أصيص زجاجي صغير على الطاولة، تمدّ يدها إليّ ولا أراها. كان نظري يلاحق وردةً غائبةً في فضاء غائب.
وكان المقهى قد بدأ يفرك حاجبيه، كمن يستيقظ باكراً ولا يزال في حاجةٍ إلى النّوم.
أنتِ المرأة الغائبة هذه التي ترافقني، من أنتِ؟
أمامك ثمانون سنةً – أنا. وانظري إلى سِكّين التّاريخ كيف تجزّها وتنغرس فيها، هل تسمعين صدى ضرباتِها؟
حاولي أن تخترقي تلك الغيمةَ التي تغطّيها. حاولي أن تقرئي الخطوط التي رسَمها نَرْدُ الأيّام وهو يتدحرجُ عليها.
أمامكِ ثمانون سنةً – أنا.
ماذا أقول؟ حلم يقظةٍ ليس إلاّ نوعاً من النّوم. عليّ، إذاً، أن أستيقظَ حقّاً، –
أن أحقنَ كلماتي بِنسْغِ التحوّلات لكي أحسنَ الكلامَ على الصّين،
أن أصنعَ من ذلك المعبد الأرضي تيانامين (Tian ammen) مرآةً تتمرأى فيها أسئلتي، وأن أصنعَ من الأسئلة مَسْرحاً تتعرضُ عليه شموس المعنى،
أن أتفحّص برفقة صديقي الدّكتور بسّام، المعجمَ الذي كتبته الحياة، وأتفقد فيه الكلمات التي جَفّت ضروعها، وتلك التي لم تنبتْ أثداؤها بعد.
وكان في لغتي ما يقول:
عميقاً، ينزلُ رَعْدُ التاريخ في جسد المادّة.
أ– كرسيُّ السّماءِ
لا يَسَعُ حَتّى حصاةً يُدحرجها طِفلٌ يبكي.
ب – غيمةُ اللّغة:
سِرْبٌ من الأجنحة تُمطر حِبْراً صينياً.
ميزانُ المعنى:
كفّةٌ للكلام، وكفّةٌ للسؤال.
ج – نجمةٌ تنزلُ وحيدةً على سلّم الفضاء

أظنّها تحمل بريداً أنتظره.
د - لا تموتُ من الشّيخوخة،
تموتُ ملَلاً من أبديّة الطّفولة.
هـ - «لا شيءَ يموت»،
يقول لك الموت نفسه.
الموت هو الطّينُ
الذي تُجْبَلُ منه أعظمُ الأكاذيب.

II (١٤ مارس، السبت)

قلتُ في ذات نفسي، متذكّراً زيارتي الأولى لبيجنغ، سنة ١٩٨٠، خيرٌ أن أبدأ زيارتي الثانية برؤية سوقٍ شعبيّة.
أرَى النّاسَ في حياتهم العمليّة اليوميّة، وأرَى تنويعات هذه الحياة.
وقلت ذلك لزينب.
ابتسمت وقالت: حسناً.
صعدنا في سيارتها الجميلة إنفينيتي، وكانت ترافقها تلميذتها أميرة، لرؤية سوقٍ شَعبيّة نموذجيّة.
تحمل زينب شهادة الدكتوراه في الأدب العربي، وهي أستاذة في قسم اللّغة العربيّة بجامعة الدّراسات الأجنبيّة. مسلمة، متزوجة من طبيب صيني، أخصائي كبير في أمراض القلب، واسع الشّهرة. وهذا الاسم اختيارٌ منها، اسمٌ مستعار. اسمها الحقيقي الصّينيّ هو «شياوكين وو».
حَقّاً،
مدخل مطعم بسيط. مخزن صغير لبيع منسوجات حريرية وقطنية.
مفرق شارع تتزاحَمُ فيه، بنظام ودقّة، سيّاراتٌ من كلّ نوع.
سقف قرميدي. عمارة حديثة زجاجيّة. أبراجٌ.
أشجارٌ لا أعرف أسماءَها. فتيات تحاول كلٌّ منهنّ أن تجذبكَ، بوصفكَ أجنبياً، إلى دخول حانوتها. لؤلؤٌ وجادٌ وأحجارٌ تكاد أن

تكونَ كريمةً. تماثيلُ: تِنِّينٌ هنا،
عَنْقاءُ هناك..،
حَقّاً، هذه كُلّها يمكن أن تكونَ فاتحةً لكتابٍ في الدّهشة، أو مقدمةً لدراسة الفرق بين ما ينْتهي ومَا لا نهايةَ له.
قلتَ لزينب ضاحكاً: تتعب قدمايَ، عادةً، عندما أسير محاذياً للسماء. ولا تتعبان أبداً عندما أسير بين البشر الأكثر التصاقاً بالأرض.
قلت ذلك، جواباً عن سؤالها: هل تعبت؟
وكانت قد سألتني وأجبتها: صحيحٌ كما تقولين.
لم يُقدَّرْ أيّ شيءٍ للإنسان. الإنسانُ هو الذي يكتبُ كلّ شيءٍ لكلّ شيءٍ. أوّلاً، وإلى آخر اللّغة.
ولا أُفاجأ، مثلَكِ، أن تتجيّشَ الطّحالبُ ضدّ الموج.
أو أنْ يَتبلّل قميصُ الحرّية بماء التباريح. دائماً، دائماً.
وانظري – تلك المدارات التي أجيءُ منها. يُؤْكَلُ فيها الماضي مُهْتَرِئاً. ويُؤكل المستقبل نَيّئاً. وكلّ مدينةٍ كَبْشٌ يُذْبَح. وكلُّ ذابحٍ يقول عن نفسه إنه مَلاَك.
لا أحَدٌ في مكانه غَيْرُ عُثّةِ القَتْل.
وكلّ نَبْعٍ يَجيءُ ويذهب في مائه ضفدَعٌ بشعٌ، وربّما خمسة أو عشرة.
هُبّي يا رياح كونفوشيوس، وأنتِ كذلك هُبّي أيّتها الرّوائح البوذيّة والطّاويّة. وقولي لكلّ مَحْسوسٍ أن يفتحَ لنا ذراعيه.
بيت زينب يَفتح صدره للغداء. بيت جميلٌ غنيّ.
استقبلنا أبواها وطفلها. لا أعرف أسماءهم. قالت: «أحلم بثلاثة أبناء. لكن، لا يحق لزوجي أن ينجب إلاّ واحداً. وفقاً للقانون».
وقالت: «ذهب أبوايَ، في السنة الماضية إلى الحجّ. وهما سعيدان بذلك، جداً».
– إذاً، قاما برَجْم الشّيطان.
– «نعم»، أجابت ضاحكةً.
كانت مائدة الغداء باذخة.

وكان أبواها كمثل وردتين: السَّاقُ في بيجنغ، والبرعمُ في مكّة.

*

اليوم نفسهُ، مساءً، في منزل الصّديق الدكتور بسّام، مع زملائه في الجامعة. جميعاً، اتّخذوا أسماء عربيّة، تحبّباً وتيمّناً:

صاعد (تشونغ جي كون)، رئيس جمعية بحوث الأدب العربي في الصّين.

جلال (إي هونغ)، باحث في الأكاديمية الصّينية للعلوم الاجتماعية، وخبير في دراسة جبران خليل جبران.

دُرّية (لي تشين)، باحثة في الأكاديمية الصّينية للعلوم الإجتماعية، وخبيرة في دراسة نجيب محفوظ، والأدب الصّوفيّ.

ليلى (تشي مين مين)، أستاذة في جامعة الدراسات الأجنبية، ومتخصّصة في دراسة الأدب العربي القديم.

زاخرة (تشانغ هونغ يي)، أستاذة في المعهد الثاني للغات الأجنبية في بيجنغ، ومتخصّصة في دراسة الشعر العربيّ الحديث.

تشي بوهاو، باحث في الأكاديمية الصّينية للعلوم الاجتماعية، وخبير في دراسة الأدب العربيّ القديم.

إضافة إلى عَمّار، وأمل، وهادية، وداود، وسعاد، وشريف، وزينب وزوجها.

بعضهم يعرفون أن يرونا أعمقَ مما يَرى بعضُنا.

ويبدو أنّهم يواصلونَ السَّيْرَ معنا، بحماسةٍ، لكن بيقظة.

أ- تعبر السّاعات كمثل قطيع غِزْلانٍ

يرعى أعشاباً سرّيةً في غابة الوقت.

ب - الوقت هو كذلك يغنّي أو يبكي، لا بشفتيه وحدهما، بل بشرايينه كلّها.

ج - هل الحياةُ هي، حَقّاً، الكتاب؟

هل الكتابُ هو، حَقّاً، الحياة؟

هل الحياة شيءٌ والكتاب شيءٌ آخر، وشتّان ما بينهما؟

أَجِبْ، أَجِبْ يا كونفوشيوس.
د- لا تتوقّف، أيّها الشاعر،
عن ابتكار المغامرة،
خصوصاً تلك التي تزلزلُ الطّريقَ والأثَر.
هـ - أُفُقُ الإنسان
أن يتحوّل هو نفسهُ، دائماً،
إلى مفاجأةٍ لنفسه داخلَ نفسه.

III (١٥ مارس، الأحد)

القصر الصّيفي. كنت رأيته في زيارتي الأولى ١٩٨٠. كما هُو، لم يتغيّر شيءٌ. قديمٌ راسخ. البحيرةُ التي أمرَت بصنعها تلك الإمبراطورة الحالمة، تحلم هي كذلك في إخاءٍ كاملٍ مع الوقت. زوّارٌ، معظمهم صينيون، يسوحون حولها، أو يسيحون فيها كأنهم يتموّجون، كلٌّ في ماءِ أحلامه.
الغداء في مطعم الفندق. وحدي.
المطعمُ ألوانُ برتقالٍ وقرميد. الفتيات العاملات ألوانُ سوادٍ وحمرة أوركسترا ألوانٍ وحركات وأصوات لطفٌ إنسانيّ غامرٌ يقود هذه الأوركسترا لطفٌ نسائي.
إن كنت أشعر أَنّ إقامتي في بيجنغ غِبْطَةٌ فلأنّ أيّاميَ فيها تمرّ معطّرَةً بجذر الأنوثة، ولا أعني المرأةَ وحدَها، بل الطّبيعةَ أيضاً.
هل آسَف لأنّ طعماً آخر يجيء من جَذْرٍ آخر هو الآلة يهيمن على بعض الشّوارع والمجتّمعات التجارية آلة إلَه آخر.
أوه! علينا أن نحذرَ من وَقْتٍ يَجيءُ لا يكون فيه أَيُّ مَتَّسعٍ إلاّ لآلةٍ أو إله.
أصعد إلى غرفتّي تأخذني بين ذراعيها كما لو أنّها تأخذ طفلاً مُرهقاً تأخذني أحلام اليقظة -
نارُكِ، أيّتها الغالية البعيدة، يجب أن تتحوّل إلى نور.
نوركِ، أيّتها الغالية البعيدة، يجب أن يتحوّل إلى نار.
قولي، كيف أَمكنكِ أن تحتضني بذراعيكِ المؤتلفتينِ تلكَ العوالمَ

المختلفة؟ هل تشعرين أنّكِ تخسرينَ، وما هذه الخسارة؟
هل تشعرين أنّك تربحين وما هذا الرّبح؟
«للأفق غيمٌ لا يخافُ إلاّ من لازورده» تخيّلت أَنّها قالت.
«للازورد أفقٌ لا يَخافُ إلاّ من غيمة» تخيّلت أَنّها تقول.
تأخذني أحلام اليقظة —
وها هي أفكاري تستيقظُ تفتح حدائقَها لزوّارٍ لم ترهم من قبل.
ستنامُ فيها هذه اللّيلة أشباحٌ وأطيافٌ من عَصْرٍ آخر. ألمح هؤلاء الزّوار، أو كأنّني ألمحهم يتوافدونَ في قواربَ تمخر ضبابَ العالم، وأرَى نوارسَ ترفرف حولهم آتيةً من ضِفَافٍ لاأزال آملُ في أن تسمَح لمرساتي أن تصِل إليها.
تأخذني أحلام اليقظة —
مهلاً، أيُّها الرّفيق كونفوشيوس،
لماذا تذكّرني بهاملت، هذه اللّحظة؟
حَقّاً، لا بُدّ من أن ننقبَ جدرانَ السّماء.
تأخذني أحلام اليقظة —
هل سيكون العصر المقبلُ قيثاراً صينياً؟
ألن تخافي أيّتها الموسيقى من برودةِ الكون؟
العصر؟ خيال عابر في عيني تلك البحيرة — إيّاها،
والأرضُ تدورُ، لكن على سُرّة المعنى.
كَلاّ، لا أقدر أن أنام
للهواجس شفرةٌ تحزُّ أعضائي.

*

جامعة الدراسات الأجنبية. قاعة مليئة.
لقاء للكلام على الشعر. لقاءٌ نقش النّهار وجهه فيه.
تحدّث الجميعُ بحُبٍّ كأنّه الشّعر. كانت كلّ مستمعةٍ تفتح صدرَها لما تُصغي إليه كأنّها تفتحه لطفلها البكر. كان كلّ مستمع يَودُّ أن يُقيم في موسيقى اللّغة العربيّة (أربع وعشرون جامعة في الصّين تُدرّس فيها اللّغة العربيّة الآن).
أنظرُ إلى الوجوه في القاعة وأدقّق وأستقرئ يبدو كلُّ وَجْهٍ كأنّ

قنديلاً يشعّ في كلّ ثنيّةٍ من تقاطيعه.

*

ليلاً – اليوم نفسه، لقاءٌ مع الناشر، في عشاء تكريميّ شعراء وصحافيون أكمامٌ نسائيّةٌ تخيطُ بعطرها ولُطْفِها فضاءَ المائدة.

كلّ سريرٍ نَرْدٌ في يد الحبّ
كان يانغ ليان، الشاعر، قد ذهبَ إلى حظّه
وكانت كلّ امرأةٍ تتهيّأ لكي تذهبَ إلى سرير حبّها.
أ- الجسم هو أوّلاً، العظم.
الجسدُ هو، أوّلاً الحبّ.
والبقيّة لفراغ اسمه السّماء.
ب – الحقيقةُ هي أن تُعاشَ.
ج – ثوبٌ تِنّينٌ للإمبراطور،
ثوبٌ عنقاء للإمبراطورة.
د – القربُ؟ «أهو طعمٌ مسمومٌ»؟ يسألني الهواء.
هـ – عِطْرٌ يتقطّر حُرّاً
مِن زُهورٍ عائمةٍ في بحيرات الصّداقة.

IV (١٦ آذار، الاثنين)

غداء تقيمه رئاسة الجامعة مُمثّلةً بنائبة الرئيس السيدة يانغ يان هونغ. غداء جامعيّ. تحدّثنا كما لو أننا نخافُ من هاري بوتر، ثقافيّاً، كما نخاف حربيّاً، من الصّواريخ والقنابل. داء النّمذجة والتّماثل. رعبٌ أن يكون المراهقُ في بيجنغ كمثل المراهق في لندن.
وتحدّثنا، كما لو أنّنا نقول: في الفلسفة الطّاويّة يبدو الوجودُ صديقاً قريباً للإنسان كأنّه نوعٌ من الجواب. أمّا في الفلسفة الغربيّة فيبدو أن الوجودَ «بعيدٌ»، أعني أنّه سؤال.

*

بعد الغداء لقاءٌ مع بضعة صحفيين في مقهى على «بحيرة

المعابد العشرة». أسئلة تؤكّد أنهم ليسوا على معرفة بالشعر العربيّ وحده، بل أيضاً بالأحوال السّياسيّة والثقافية العربية.
مقاهٍ ومطاعم عديدة على البحيرة. إضافة إلى حوانيت صغيرة، تُعنى بإرضاء أو بتلبية فضول الأجانب الذين يزورون بيجنغ للسّياحة. وهم يزدادون كثرةً يوماً بعد يوم.
الحيّ كلّه قديمٌ. تشعر، فيما تتجوّل فيه، أنّ لدى ساكنيه شَغَفاً بالحياة وبالآخر، يجعل من الحياة اليوميّة هيكلاً في الهواء الطّلق. بيوتٌ وأزقةٌ يسيلُ منها عَرَقُ الذّاكرة، وينبض فيها قَلْبُ التاريخ القديم.
تشعر هنا كأنّ الموتى لا يموتون، كأنّهم يتوهّجون في الشّمس التي تسطع، والرّيح التي تهب، والماء الذي يجري.
وتستطيعُ، بنشوةٍ ما، أن تشاهدَ القديمَ في جُبّةِ الحاضر الحيّ...
وما أَندرَ النّوافذ المغلقة على آفاق ما مضى، أو لنقل: ما أكثر النوافذَ المفتوحةَ على ما يأتي.
ولئن كان الماضي هنا ظلاً يرتسم على قرارٍ ليس إلاّ أيدياً تعمل، وعقولاً تفكّر وتخطّط، فإنّك تشعر أنّ فيه أشباحاً ظلالاً وأطيافاً تطوف حولك لا لكي تشدّك إلى منازلها الماضية، بل على العكس لكي توشوشكَ أنّها مأخوذةٌ بأيّامكَ أنت، وأنّها ترغبُ في أن تعيشَ معكَ، وتشاركك الحياة والفكر والعمل. كأنّ الماضي نفسه يخرجُ من ذاته، شوْقاً إلى أن يُصبحَ حاضراً.
وليس صَخبُ الشّوارع والأزقّة إلاّ هديرَ حياةٍ تتموّجُ آتيةً من ينابيعَ لا تعرف أن تميّز فيها بين مائها القديم ومائها الجديد.
رجالٌ ونساءٌ، أطفالٌ وشيوخٌ يخرجون من هذه الينابيع، ينظرون إليك، ويبتسمون لك وتشعر كأنهم يحبّون أن يرافقوك في سَيْرِكَ، كأنّما الحدودُ بين العالم الغائب والعالم الحاضر، تتحوّل إلى ستائرَ رقيقة، حميمة، وشفّافة.

*

عشاءٌ يقيمه الشعراء أصدقاء الشاعر الصديق (المقيم في لندن) بانغ ليان، والحاضر في بيجنغ:

هان زيوكونغ، شين واومنغ، هيسها وجون، شن شانغ فنغ، نانغ كي، زاوسي، مانومو، تانغ كسيادو، نرين يلنغ، كسوشيتغاو.
نبيذ أصفر على المائدة. النبيذ الأعلى في الصّين، من مدينة ساوتيشن، مسقط رأس الشاعر والكاتب الكبير المشهور لوتشين.
نبيذ تقول إنّه نبوءةٌ نواسيّة. تقول إنه الشّعْرُ الآخر.
اشرَبْ، لا تَخَفْ.
شَعَرتُ في هذا العشاء - الشّعر أنّ للجنين الذي يحمله الفجر للطفولة التي ينتظرها المساء، أعصاباً تتكوّن في أحشائي: يُغرِيني هنا خصوصاً عَصَبُ الرياضيّات، راسماً مَتَاهات اللّذة.
يُغْرِيني عَصَبُ الضّربات السّحريَّة التي تنزل من عَصا ذلك النبيذ الأصفر، وتلك التي كانت يد الشعر تُلوِّح بها في فضاء الجسد.
كان الفضاء تلك العشيّة يلبس رماده الشّتائيّ الأخير.
أحسَستُ، فيما أودّع الشعراء أنّ بيجنغ تنشطر في مُخيّلتي: شَطْراً للحبّ، وشَطْراً للشعر.

*

بعد هذا العشاء، نتابع السّهر - يانغ ليان والدكتور بسّام والدكتور عمّار وأنا، في بيت الخطاط الرسّام الكبير المشهور زنغ لاي ده.
البيت كلّه، على اتّساعِهِ الغنّي المُتْرَف، الأنيق، حُوِّلَ إلى ما يشبه المرْسَم - المُتحف، لأعماله، ولأعمالٍ - تماثيل صينية قديمة، نادرة ومدهشة بقوّتها وجمالها. كأنّ بيته لوحة واحدة متنوِّعة. وكأنّ الواقع فيه هو نفسه المخيلة. قديمة، نادرة، ومدهشة بقوتها وجمالها. الأبيض - الأسود، أو الأسود - الأبيض: ذلك هو حبره، خطّاً ولوحةً.
تنظر إلى ما يبدعه زنغ لاي ده، تتأمّلُ فيه، فترى أنّ الطّبيعةَ تتحوّل إلى ما يُشبه أبجديةً تكوينيّة، تشع منها مَخْطوطاتٌ وكتبٌ، أحلامٌ وآفاق، تواريخ وأمكنة.
وتشعر كأنّك تقرأ وترى
جبلاً ضخماً يطير بأجنحة فراشة.
فراشةً تحطّ على برعمٍ اسمه الفضاء،

شمساً تُقدّم لك حبّها، لكن تغريكَ أوّلاً
قراءةُ ما كتبه لك،
أطيافاً تَسيرُ ملقيةً أذرعها على كتَفِ الضّوء،
لهبَ حاجةٍ في أعماقكَ
للترحّل طويلاً طويلاً في ذروات الحِبْر.
والزّمنُ في هذه الأبجديّة خفيف الخطوات. يدخل من أبوابٍ بلون الرّماد، وعلى رأسه تاجٌ ينتمي إلى وحدة الفصول. تنبعث من هذا التّاج أشعّةٌ – خيوطٌ ينسجُها الحِبْرُ، ويتدثّر بها الورَق.

أ – المُحْتَملُ يحملُ الواقع بين ذراعيه،
والهواء يتأبّط المادّة.

ب – أن نتكلّم هو أن نسكن الكلمة،
لا أن نكتفي بلفظها.
الكلامُ مسألَةٌ في شجاعة المجتمع
لا في شجاعة اللّغة.

ج – قالت:
جسَدٌ كلّما التقيتهُ
أُعالج شهواتي بتخيّل جَسَدٍ آخر.
تلك اللّيلة،
نام الشّاعر في أحضان رائحتها.

د – ليس السّفر طريقةً في المعرفة،
السّفَرُ طريقةٌ في الحبّ.

هـ – بيجنغ –
قلبها واقفٌ على سُرّة الشّمس.

(١٧ آذار، الثلاثاء)

أو يانغ جيانغ هه، تانغ شياو دو، وانغ جيان زو، لان لان (شاعرة) شي تشوان، شو تساي، موهونغ يان (شاعرة) – شعراءُ يفتحون اللّغة الصّينية على الأدب العالمي (الروسيّ،

الإنكليزي، الفرنسيّ، الفارسيّ)، ويسافرون في أقاصيه.
نتعارف، نتحاور، ونسافرُ معاً، وليس السّفر هنا طريقة في المعرفة بقدر ما هو طريقةٌ في الحُبّ. هكذا يستطيع كلٌّ منا، عندما ينظر إلى النّجوم في سماء البلاد التي يسافر إليها، أن يرى ما بين أفخاذهن، وأن يلامسَ أثداءهنّ.
٧٩٨ كانَ هذا الرقم اسماً لمصنع عسكريّ. اليوم، تحوّل إلى مجمّع فنّي. قمت بجولةٍ سريعة في عدد من قاعات العرض، برفقة الصديق الدكتور بسّام، دون برنامج، دون خطة، عفوياً.
فوجئت بحدثين كبيرين:
معرض لمنى حاطوم، الفنانة اللبنانية – الفلسطينية، ومعرض للفنان الصيني تشيو جيي جيا (Qiu 2 hijie).
ينظم المعرضين «مركز أولينز للفن المعاصر Ucca» الأوّل بعنوان «measures of entanglement» والثاني بعنوان «breaking through the ice» كسر الجليد)
وكنت رأيت بين ما رأيته كيف ترسم الأساطير الصينية الشعبية، وكيف يرسم بوذا في شكل امرأة، منقذاً للعالم، (سو يونغ sho yong)، ورأيت كيف يرسم الإنسان واقفاً، بعينه الصغيرة مندهشاً، أمام ابتكارات العالم وعجائبها (سوجي Ji Shu) وكيف يسيطر التّرميزُ، وهاجسُ تَصْوير «الأفكار»، و«تمثيلها»، في كل ما رأيته، وكيف تجيء «التّقنية اللّونية – الفنيّة»، في مرحلة ثانويّة، بوصفها مجرد أداةٍ للتّعبير عن «الفكرة».
أمّا معرض «كسر الجليد»، فهو أولاً تجهيزٌ ضخمٌ يمثل الحياة اليومية في الجنوب الصينيّ، بأدواتها وأشيائها اليومية ذاتها. وثانياً ما سمّاه الفنان: «المدنيّة الفاشلة» – أربع سلاحف، أربعة جدران، أربعة أبواب، لا سقف، نبات يكسو أعالي الجدران تعبيراً عن الفشل في أوجه، وثالثاً، ما سماه «عاصفة في الدّاخل» ورابعاً ما سمّاه «زينون الإيلي» – الذي يظل واقِفاً، فيما يتحرّك العالم دون توقف. وأخيراً ما سماه: «استراتيجية الدّولة»: تجهيزٌ

بارعٌ، شديدُ الإيحاء، عظيمُ الإتقان.
أمّا مُنَى حاطوم، وقد رأيتُ سابقاً بعضاً مما تعرضه هنا، فهي فنّانَةٌ خلاّقةٌ وفريدةٌ تصنع أراغِنَ للمخيّلة، فيما تؤاخي بين الحاسّة المباشرة والحدس البعيد، العميق، بين فيزياء العناصر وكيمياء المشاعر.
٧٩٨/ مدينة للفن تحتضنُ الطّاقة الفنية المبدعة، لا في الصّين وحدها، بل في العالم كلّه. مدينة الانفتاح، والحركة، ولهفة البحث، خروجاً من الذهنية الدّوغمائية وثقافتها، ومن كلّ ما يطمسُ الرّغبةَ وأحلامَها.

*

(١٩ آذار، الخميس)

بينَ زيارة «المعبد السماويّ» تلبيةً لشهوة العين، وزيارة موقع سينا (SINA) على الإنترنت، تلبيةً لدعوته لإجراء حديثٍ مصوَّرٍ معي، سافرتُ بعيداً في مخيّلتي –
بلى، بين الحجر والحجر في جدران التاريخ ينبتُ عُشبٌ لا يُوصَفُ ولا يُسَمَّى. وعبثاً تحاول أن تمحوه المعادن الثقيلة التي تتدحرجُ فوقه.
عُشبٌ بُرْهانٌ على أنَّ الحياة لا تُغلَبُ. أنَّها هي التي تنتصِر أخيراً.
في العالم كلّه، حيثِ أتيَح لي أن أتجوّل، تجوّلتُ في بستانٍ حديد، واصطدمتُ بأجسامٍ برونزيّة، ورأيت أشجاراً تنحني فيما كانت أغصانها تُحَوَّلُ إلى منجنيقاتٍ لِرَجْم الثمار التي تنضج في حقول المخيّلة.
مَهْلاً يا أهل تلك المعادن، وأصغوا إلى الأسئلة التي يطرحها عليكم تلاميذُ العُشب.
أصغوا أنتم، أيّها الأصدقاء العاملون في الصحافة، بريد العالم الممكن المقبل – وو بينغ، كواي ليه هاو، ليو تشي بونغ، مويه، جانغ لوسي، وانغ جولي، شي جيان فونغ، تيان تيشي لينغ، شيه تشي سان، كانغ كاي، ليويو، أصغوا، لكي تستيقظ لغاتُنا

من سُباتها لكي تزداد قرباً إلى الشعر وتتناولَ من يديه خبز حضورها الخالق وأعرف أنَّهُ حضورٌ يهدِّده داءُ الذاكرة والعِرْق حيث ترقص القبائلُ وتُصفِّق السُّلالات. حيث يجلس الزمان بائساً أعرجَ لاهِثاً على عتبات الأمكنة.

وأعرف أن حمماً تتطايرُ وتختبئُ في أحشاءِ ظُلماتِه يقذفها سِرّاً جوعُ التّاريخ. ولن تعرف كيف تتخلّص منها تلك الرمال التي تتجمَّعُ وتتشكَّلُ في عَساكِرَ ونُجومٍ وخَرائِطَ،

هنا، عندنا خصوصاً، على البحرِ المُتوَسِّط - الأقصى/ وهل يمكن أن نُلغيَ الجمعةَ من أيام الأسبوع، ونضع مكانه يوماً آخَر باسْمٍ آخر؟ وهل يمكن أن نلغيَ كذلك السَّبْتَ أو الأَحَد؟ دون ذلك، رُبَّماً ستَظلّ عَرَبةُ الوَقْتِ تبحثُ عَبَثاً عن دولابٍ صالح لعبور المسافات نحو المجهول.

أ - لا تقل: صورتي قُلْ: هو.

أنتَ كلّ ما ليس على صورتك.

ب - التبسي عليَّ، يا نفسي.

ج - «في قمر الصين شِقٌّ إيروسيّ»،

يقول فلكيٌّ عربيّ.

الشاعر أوّلُ من صَدّق هذا القول.

د - اتّكئْ على الهاوية،

لكي تعرف كيف تتسلّق الضّوء.

هـ - يا دليليَ التّائه،

ليس في جُبّتكَ إلاّ أنا.

VI (٢٠ - ٢١ آذار، شانغهاي)

شانغهاي،

يبدأ الحفلُ لا ينتهي.

الأشياءُ كلّها في ثيابٍ يُبلِّلها مسكٌ خاصٌّ تحمله قواريرُ غامضة. ثياب تحت آباطِها واقعٌ يَشُكُّ في أنّه المخيّلة، وفي أكمامها

مُخَيّلَةٌ يُشَكُّ في أنَّها الواقع.
يبدأ الحفلُ لا ينتهي.
وكلّ مُحْتَمَلٍ ضيف.
والسَّاعات تنتشرُ قِباباً قِباباً تُراقُ تَحتَها خمرةُ الغيب.
كلاّ، ليست النساء ظلمات، وليس الرِّجالُ بروقاً: أشجارٌ واحدةٌ بنسْغٍ واحدٍ لشهوةٍ واحدة: الحياة، الحبّ، الشعر، المال، غالباً، والسياسة، أحياناً.
وكلّ شيءٍ شِراع.
المِرساةُ قويَّةٌ راسخة، غير أنّ الحبالَ تتأرجَحُ يُمنَةً ويسرة في عباءة فضفاضة. حيتانٌ، أسماكُ قِرْشٍ، سَلاحِفُ، سَرْدينٌ - عائِلَةٌ واحِدةٌ، في رائحةِ بَحْرٍ مالحةٍ، في ماءٍ حُلْوٍ، أَطْولِ نَهْرٍ في الصّين، خْوانْغ بو.
دواليبُ الوَرَق، الإنترنت، الكمبيوتر، الشّاشات من كلّ نوع أوركسترا واحدة. ولا خيارَ - عليك أن تُصغيَ إلى هذه الموسيقى.
إذاً، أعطِ أذنيكَ إلى صَدَفَةٍ واستمِع إلى ضجيج العالم.
أمّا أنا فسوف أسهرُ هذه العشيّة على قبر المعنى.
أسهر مع ناشر كتابي.وانغ لي شين ومترجمه الدكتور بسّام،
ومع شعراء شَانْغَهاي -
مومو، يويو، يه رين، تشي قوه، يه تشينغ، يوان تشون (جاء خصيصاً من مقاطعة تسه جانغ)، والشاعرة الجميلة الشابة مي هوالو
نَسْهرُ، وكُلٌّ مِنّا يسألُ جَسدَهُ: آأنتَ موجةٌ؟ «ولماذا النَّومُ»؟
يقول السهر. النَّومُ يُشبِهُ عينَ الوطواطِ، وعُنُقَ القَبْر.

*

إنها شانغهاي،
موسيقى هَنْدسَاتٍ وأضواء، تلعبها أوركسترا الأبراج، والعَصرُ يُدَنْدِنُ اللاّزمة.
وكنْتُ عرفتها في نهايات القرن الماضي، ١٩٨٠ تحديداً. وكنت قرأت في وجهها: كيف يعادُ ابتكار العالم؟

ولَم تكن الجُرِّيةُ حُرَّةً بعد،
ولَم يكن للأُفق شَهْقَةُ المحيطات،
وكانت اللُّغة لا تزال في بَوْحِها الخجولِ، وشِبْه الخفيّ.
إنها شانغهاي،
الرَّأسمالُ في كُلّ مكانٍ، واضعاً على رأسه قُبَّعَةَ الإخفاء.
وتِلك هي بيوتها القرميدِيَّة وأحياؤها القديمة تتحوَّلُ إلى ما يُشبِهُ حَدائِقَ تسوِّرها الأبْراجُ والعمارات. رأيتُ في هذهِ الحدائقِ نُجوماً تلبسُ قُبَّعَات من السِّيلوفان، وتَجلسُ في دوائرَ تُحيط بِسَاحَةِ الشَّعب. وكان قَصبُ السُّكر يتَّكِئُ على جدران الحوانيت الصَّغيرة كمثل جنودٍ أرهقهم السَّيرُ، في حُزْنٍ أسودَ كأنَّهُ يرشحُ من الأيْدي التي حملت هذا القصبَ من حقوله البعيدة.
صَخَبٌ في أحشائي –
مَنْ يقدرُ، من يعرفُ أن يقول له: تَوَقَّفْ!
كلا، لا تُغريني صناعةُ الزِّبد، هذه التي تبدو كأنها تكادُ أن ترسمَ صُورَة العصر. وما هذه الوردة التي تمنَحُ جَسَدَها إلى سريرٍ بلاستيكيّ؟
لكنْ، هو ذا أعبرُ أمام زَهْرَة لوتس، وأُقنِعُ عَينيّ:
جَمِيلٌ حَقاً أنْ يَظْهَر بُوذا، أينما اتَّجهت،
في صورةِ امرأة!

*

أ – عَصْرٌ
كمِثْلِ ورقٍ يتطايَرُ في إعْصَارِ المعْنى.
ب – لا ينقشِعُ ضَبابُ المُدنَّس،
إلاّ بريحٍ تكْنسُ غُبارَ المُقدّس.
ج – لنبعِ المعْنى
عينان لا تكفّان عن البُكاء.
د – الآلةُ، الآنَ،
نِصفُ رَجُلٍ وشِبْه امرأة.
هـ – الغيمةُ مِعطَفٌ ممزَّق
ذلكَ ما يؤكّده جسم الفضاء.

VII

في الغَسَقِ، على نَهر خوانغ بو، حيث يتحوّل الإسمنتُ إلى شريطٍ كأنّهُ الحريرُ يصل الإسفلتَ بالسَّحاب، وسُرّةَ الشّرق بِشفتيْ الغرب،

كان برج جين مَوْ يقرأ شِعرَه على الفضاء، في ضبابٍ يبدو كمثل حجابٍ شفافٍ ينسدلُ على رؤوس العمارات. وكان الفضاءُ يتربَّع، يداً لكتفي التِّبيت، ويداً لخاصرة نيويورك.

نساءٌ يَتَرَقْرَقنَ على كورنيش النهر. يُمْسِكنَ الوَقْتَ بأهدابهنّ وَيَقْتَنِصْنَ طيورَ المسافات.

وتأمَّلتُ في يَرَقَاتِ الحرير الكونيّ كيف تخرجُ من بيوضِها وكيف تتمدَّد حول آلةٍ يُحَرِّكُها إلهٌ لا مِنَ الواقع لا مِنَ الأسطورة، من غَيْبٍ آخر في جُرحٍ تكوينيٍّ آخر.

وكان في الأفق ما يُتَمتِمُ: انحناءُ ظهرِكَ، أيُّها الإنسانُ، هاويةٌ أخرى تشق العالم.

كان يمكن في هذه اللّحظةِ أن أقول كلمةً واحدةً: سلاماً، قبل أن أعود إلى الفندق، بارك أوتيل في ساحة الشّعب، وأدفن رأسي في سرير وَجَعٍ كأنّه العَربُ، أو كأنّهُ هذا الكونُ الطِّفلُ الذي يَشْهَقُ ويكادُ أن يختنِق.

ولا رسالة،

غير أنني حزنت قليلاً لأن الأَمْنَ لم يسمح، وِفْقاً للقانون، أن تصعد معي إلى الطائرة زجاجة الحبر الصيني.

أعتذر، إذاً، إلى جميع العناصر التي تتمازَجُ في هذا الحبر وتشارك في تكوين هويّته السّائلة السوداء البهيَّة.

ولا رِسَالة،

لكن، لا بدّ من أن تكون للحياة أجنحة،

وأن تخفق هذه الأجنحة في صدر اللّغة.

لكن، وداعاً شانغهاي،

لو لم أَزُركِ ثانيةً،

لَخِفْتُ أن يقال عنّي:

جاءَ إلى العالم وذهبَ ولم يرَ شيئاً.
سافَرَ الورقُ في حبر الأسئلة،
سافَرَ الحِبرُ في الصَّوت،
أين ستسافرُ أيّها الصَّوت؟

خلايا نافرة في جسد الوقت

I. غرناطة

-١-

السَّاعة الحادية عشرة صباحاً.
الخارجُ الجامِحُ حميمٌ. زهرةُ يَشيخُ لا من الخريف، بل من الحكمة.
الحكمة مِسْكٌ.
والمسك طفولةٌ دائمة.

-٢-

قبل أن أقرأ لوركا، وقبل أن أزورَ بيته في غرناطة، كنتُ أقولُ عنها إنّها لغةٌ لا تشبعُ الأيّام من رضاع ثَدْييها. وكُنتُ آخذها بحبالِ صوتي، وأعقد هذه الحبال بجذور الشّعر.
وعندما قرأته، لم أكن أعرف أنّني أغرزُ كوكباً غريباً في رأسي.
ثُمّ تعلّمت كيف أقيس الفروقات بين الشّعراء والكواكب.
حَقّاً، لا تُرى غرناطة إلاّ حاملةً لوركا بين ذراعيها.

-٣-

الساعة الحادية عشرة صباحاً، في العاشر من أيار ٢٠٠٩، زرتُ برفقة شعره قصر الحمراء.
زيارةٌ ليست الأولى، وأرجو ألاّ تكون الأخيرة.
كانت خطواتنا حداءً لقافلةٍ من عُشّاقٍ أحبّوا نياقهم.
وكانت الأشجار وأنواعٌ كثيرة من النباتاتِ ترافقنا.
غَنَّت. أقنعَ غناؤها الهواءَ لكي يعزف تآليفه الموسيقية التي لم

يعرفها من قبل.
النّهار كمثل لوحةٍ توطّرها حواجبُ الشّمس، كنّا نبدو فيها كأنّنا بؤبؤان يجيئان من شمسٍ أخرى.
لم تصعد الشّمس إلى عربتها العالية. آثرت أن تواصل السّيرَ معنا مَشْياً على قدميها.
حسناً، فعلتِ أيّتها الصّديقة الشمس. تُعلّمينني أنّ لي في كلّ مكانٍ جَذْرَيْن: واحداً أضيئهُ، وآخرَ يُضيئني.

-٤-

الأيام ترقد في ثقوب قصر الحمراء. في زواياه. في الممرّات والأروقة. في الأقفال والأبواب. في الأحواض والحدائق. في النّقوش والرّسوم، الألوان والحروف والخطوط. ترقد حولها أرقامٌ وإشارات. دروبٌ وآفاق.
سلالم. سُروجٌ. طاساتٌ للرؤوسِ، وطاساتٌ للشّفاه.
ترقدُ في سديمٍ أخضر.
- لوركا، هل يقدر الشعر أن يكون وطناً لليقظة؟
- وأينَ اليقظةُ التي تقدر أن تكون وطناً للشعر؟

*

كان الضّوء ينسج للظلّ ثياباً غير مرئيّة. وفي الشّفافية التي تؤالفُ بين الأطرافِ صانعةً منها أوركسترا، رأينا كيف يكون الظلّ ضوءاً، والضّوء ظلاً. وتأكّد لنا أنّ الضّوءَ لا يموتُ إلاّ من قلّة العمل في حَقْل الظلّ.

*

الساعة الحادية عشرة صباحاً.
سألْنا عن ثَوْرٍ أسود قيل إنه ضربَ موعداً للمصارعة.

*

سألتُ لوركا: أين أجد آلام غرناطة، إن لم تكن في الشرفات والنوافذ؟
- انظرْ إليها كيف تنحني على العتبات.

تخيّلتُ ذلك اليومَ الذي أمطرت فيه سماء غرناطة في إحدى زياراتي.

كان الرّعدُ نشوةً جنسيةً في فراش الغيم. ورأيت المطر كيف يهجر عشيقته، الغيمةَ الشاردة، التي كانت معه في فراشٍ واحد. ورأيتها كيف تذوبُ حزناً، وتموت. ولم يكن قبرها بعيداً عن البيت الذي وُلدَ فيه لوركا.

*

تخيّلتُ أنني أسأل لوركا:

– هل أشْفَى إن قلت: أعود إلى طفولتي؟

أو قلتُ:

بين ذراعي رُمّانةٍ أنامُ،

وفي سرير وردةٍ أستيقظ؟

*

في ذلك اليوم،

لم تحضنّي غرناطة بذراعيها.

أَجلستني على ركبتيها.

– ٥ –

قالت غرناطة: كنت في الأندلس زوجةً ثانيةً.

لماذا أبدو اليوم كأنني زوجةٌ أولى، وكأنّني أكثر فتوةً؟

– ...

– هل الوقتُ، اليوم، ذَكَرٌ كذلك؟

– ...

*

تشغلني الآن فضيحةُ الغسق.

يشغلني، على الأخصّ، هذَيانٌ يتدفّق من أبجديّة الفَجْر.

*

سألت لوركا:

– كيف لم تتعب الجيرالدا من وضع رأسها على كتف الرّيح؟

لم يجب. قال شيئاً آخر:
– يحتاج رأسي إلى فترة طويلة من النقاهة يمضيها في بساتين قلبي.

-٦-

خُذِ الضّوءَ وارسمْهُ جسداً مائِلاً على جسد الظلّ. سترى أَنّ النّظر مرآةٌ. أَنّه وجهٌ وعينان وكلامٌ. سترى أنّ النّظَر لَمْسٌ بالصمتِ والحركةِ والإشارة.
قُلِ: الظِلُّ جَدْولٌ. وسوف ترى كيف تتحوّل الجدران إلى دفاترَ. وكيف يتدلّىَ الحبرُ أقراطاً في آذانِ الحجارةِ.
وكيف يكون الحَجرُ تمرُّداً، والحبرُ تَرْويضاً.
وسوف ترى أَنّ النَّقْشَ والرَّقْشَ إحْكَامُ رَمْيٍ للحِبرْ، وأَنّ الحركاتِ أقاليم.

-٧-

– «في الحمراء، تتآلفُ مواليدُ التّاريخ مع مواليد الطبيعة»، قلتُ للوركا.
قال: الزّمن، هنا، تَسْطيرُ خطوطٍ وتخطيط ظلالٍ وأضواء. كأنّ الضّوء مسطَرَةُ نَجّارٍ بارع.
وقلت: هُنا، العطرُ وصيٌّ على عرش الورد، والضّوءُ وصيٌّ على عرش الماء.

-٨-

تعريفات
* النّقشُ دفترُ قَيْدٍ للحركة.
* الهواءُ إزميلٌ يكشُطُ الحجر.
* النّظَرُ لَمْسٌ ضوئيٌّ، أو هو إدراكٌ سَمْعيٌّ للفضاء.
* النُّقطة خَوْخٌ أخضر، حيناً، وحيناً مكانٌ لنداء الخُطوط وتَجْنيدها. وأحياناً، عينٌ غائرة.
* الجدارُ، كمثل العمود، قامَةٌ تَفْتُرُ وتتكاسَلُ غُنْجاً، لا تَعباً.
* القَنطرةُ أميرةٌ لِنَحْلِ الأضواء.

* للقبّة خاصِرَةٌ تَضبطُ رَقْصَ الألوان.
* الزّاوية شِعرٌ موزون.
* العَمودُ عَضلَةٌ رافعة.
* السّقف يسمعُ بخشوعٍ خطاب الألوان.
* البابُ يُشَمِّر أكمامه.
* النَّحْتُ النّاقِرُ يُرَوْنِقُ الباب.
* الشّمس تُريح أعضاءَها على الجدران.
* الهندسة فَنٌّ في تَرْويضِ الرّيح.

-٩-

(زاوية السّقوط)

تَشَعَّعْ، لكي تُحْسِنَ توحيد أجزائك، أيّها الضّوء.
بينَ الأقواس المتشجّرة، والضّلْعيّة، والمُسَنَّنة.
بينَ العقود المُقَوْلَبةِ التي تغطّي أعاليَ النّوافذ، والأروقة المقَنطرة،
والشُّرُفاتِ المُقوّسة، في هندسةٍ - عُرُسٍ دائم.
أرِنا، أيّها الضّوء كيف تَسْتَرْخي السّماء في ثقوبٍ تُرَقّشُ السّقف،
وكيفَ تكون الهندسة والسّماء تَوْأمين.
أرِنا، كيف تكون الهندسة اسْماً آخرَ للشّعر،
وَعلِّمْنا كيف يكون ما لا نراهُ أجملَ مِمّا نراه.

-١٠-

الخاتمة

الآنَ، بعد أن سمح لي الغيمُ في غرناطة أن أكونَ أخاً للمطر، هل سَيسمحُ لي البحرُ أن أكونَ أخاً له؟

II نَرْد

-١-

اقرأْ - لا تَقْرَأْ
إلاّ ما يُولِّد فيكَ شهوةَ الكتابة.

-٢-

جاء جسدُها، غابَ جسَدُها:
بعض أعضائه شاهدٌ لي،
وبعضها شاهدٌ عليّ.

-٣-

لبعض الآلهة في تقاليد شعوبٍ قديمة، أشكالٌ وأقنعةٌ حيوانيّة:
أكان ذلك تعبيراً عن الوحدة مع الغيب،
أم عن الوحدة مع الواقع؟
ولماذا يبدو فَنّانو تلك الشعوب كأنَّهم لم يكونوا
يبتكرونَ إلا ما يخافون منه؟

-٤-

الأَبُ -
ذلك الجَذْرُ الذي لا جَذْرَ له.

-٥-

تلبس الحدادَ؟
على اللّغة العربيّة؟ على العروبة؟ على العرَب؟
الأسودُ، في كلّ حالٍ، يَليقُ بهذا الزَّمن.

-٦-

ليسَ ما قُلتَه هو الذي يُحاصركِ
بل هو ما لم تقله.
قُلْهُ، لنرى ما يكون.
وَلِماذَا تَخْتبئ الآنَ مِمّا سَيكشف عنكَ غداً؟

-٧-

متى تتجرَّأُ
على نَبْشِ العَبثِ في ذلك القَبْرِ
الذي حَفرَه الحبّ؟

-٨-

تَنْطَوي حياتهُ على أشياءَ كثيرةٍ اعتقَلَها في داخلِهِ، ومال بينها وبين الحرّية. منذُ فترةٍ، أخذَ يُحَرّرها تِبَاعاً. اليوم، ندمَ على تحرير بعضها. مثلاً، ندَم على تحرير معرفته بأشخاصٍ كان يعدّهم أصدقاء.

-٩-

هو ذا شخصٌ لا يَعملُ على تحرير غيره،
إلاّ هَرباً أو خوفاً من العمل على تحرير نفسه.

-١٠-

بَقدْر ما تزداد معرفةً بالحياة، تشعر أنّ الحياة تزدادُ صعوبةً وغموضاً:
ما هذا السرّ الذي يُخيّل للإنسان
أنّ المعرفة نوعٌ آخرُ مِن الجَهْل؟
للزّمان، هُنا – في الحياة العربيّة،
مَيْلٌ جارفٌ إلى أن يُصبِحَ مكاناً.

-١٢-

ألَيْس هنالك حَظٌّ
لذلك النَّرْد الغامض
الذي يَقْرأ الحظوظَ ويوزّعها؟

-١٣-

لا يتوقّف عن التّفكير في الموت،
لغايةٍ واحدة:
أنْ يُجدِّدَ الكلامَ على الحياة.

-١٤-

قُلْ دائماً: لا.

رُبّما لا تليقُ كلمة نعم، إلا بذلك الزّائر الأخير:
المَوت.

– ١٥ –

ليس للجماعات معنىً،
إلاّ بِوَصْفها أفراداً.

–١٦–

منذ أخذَ يعتزِلُ النّاسَ،
بدأ يشعر أنّه أكثرُ قُرباً إليهم،
وأعمقُ معرفةً بهم.

–١٧–

يُهاجمه السَّفَرُ في عُقْرِ دمَهِ،
وَتُهَاجمه العودَةُ في عُقْر خطواته.

–١٨–

لا يتحدَّث إلاّ عن التحوّل،
ولا يُمارِس إلاّ الثبات:
لِيَكن مخلصاً، على الأقلّ،
لِتِلك الكلمة التي لا تُفارِق شفتيه.

– ١٩ –

غَالباً،
يُتيح سوءُ التّفاهم
تعميقَ الفَهْم لكلّ ما هُوَ سَيِّئ

– ٢٠ –

يُعلن نفسه قائداً،

ولا يستطيع أن يمشيَ
إلاّ بخطواتِ الأشخاصِ الذين يقودُهم.

-٢١-
شاعرٌ لا يَقتَاتُ إلاّ بغبار الكراهية:
هكذا، قلّما يُرى إلا ماشِياً،
حامِلاً لسانه بين قدَميه.

- ٢٢ -
كان ينبغي أن يموتَ في نهايات القرن العشرين. أو هكذا كان يأمل،
ألهذا يشعر، اليوم، أنه ليس مُقيماً في القرن الحادي والعشرين،
وأنّه ليس موجوداً فيه، إلاّ بوصفهِ مُهاجراً؟

-٢٣-
عندما يمرّ وقتٌ طويلٌ لا يكتب فيه قصيدةً يطغى عليه الشّعورُ
بأنّه مُسافرٌ أضناه التّعب، ويكاد أن يموتَ ظمَأً.

- ٢٤ -
كلّما دخل سرَيره لكي ينام،
يطيبُ له أن يُرَدِّد
في نفسِه لنفسه:
الحبُّ جسدُ الضّوء
والجِنسُ عِرْقٌ في اللّيل.

- ٢٥ -
الإنسانُ قصبةٌ فريدةٌ وعاليةٌ
لكتابةِ الأرض.

- ٢٦ -

الطّفلُ الذي فيَّ
مأخوذٌ أبداً بالتمرّد على الشيخِ الذي هو أنَا.
وهو طِفلٌ يعتقد
أنّ العالمَ لا يزال مثلَه،
في المرحلة الأُولى من طفولته.

- ٢٨ -

عالَمٌ – يَبدو له، هذه اللّحظة،
كأنّه عرَبةٌ تجرّها أحصنةُ الكآبة،
عرَبةٌ مليئةٌ بعطرِ عُشّاقٍ ماتوا.

- ٢٩ -

أمسِ، ابتكرَ قنديلاً،
وهو، اليومَ، يَغارُ من ضوئه.

- ٣٠ -

رَفٌّ من النّوارسِ يَتكّئُ على رؤوس الأمواج:
هل يكتبُ رسالةً إلى الشاطئ؟

III طَيْف

أحياناً، يَخْطرُ لي أن أعاشرَ طيْفاً –
(لا في نوميَ، بل في اليقظة،
لا هَرباً من الواقع،
بل إمعاناً في الكَشْف عنه:
ما هو، ومن ذلك الكائن الذي يشغلهُ
والذي يُسمّى الإنسان؟) –
طَيْفاً لا أُريد
أن أعرفَ، بدقّةٍ، إلى أيِّ مكانٍ ينتمي، أو إلى أيِّ زمان.

طيفاً يُحبّ، عندما يكونُ كلّ ما حوله راكضاً،
أن يجلسَ على مَقْعدٍ أمام نافذةٍ، يُصغي إلى الموسيقى،
أو يقلّبُ كتباً لم يقرأها، أو كتباً قرأها منذ فترةٍ طويلة.
كانَ الطَّيفُ الذي جاءني أمس، تلبيةً لهاجسٍ مُلِحٍّ، يلبس قفطاناً بلونٍ مزيجٍ من البَحْر والوَرْد.
وكان عائداً من سَفَرٍ، حاملاً وراءَ أهدابهِ جبالاً من صُور الأشياء التي رآها.
كانَ مُرْهَقاً، تكادُ خطواتهُ أن تتعثّر حَتّى بالضّوء.
فجأةً، اقتربَ وانْحنَى على كتفيّ، وسمعته يقولُ شِبْهَ صامتٍ:
أَعْطني يديكَ، افتحْ لي صدركَ،
يا صديقيَ، أنت، يَا أيّها الطَّيف.

II

مرّة، اخترْتُ اسماً لطيفٍ أتفحّص به هذه الأسئلة:
أهناكَ وجودٌ للفكرة إلاّ بالكلماتِ وفيها؟
أهناكَ وجودٌ للكلماتِ، إلاّ بالأشياء وفيها؟
أهناكَ معنىً للإنسان إلا باللّغة وفيها؟
وهل أستطيع، إذاً، أن أقول: أيّها الإنسانُ، أنتَ لغتك؟
مرّةً اخترتُ اسماً لِطَيفٍ لكي أسألَ به:
هل غيابُ الحبّ، أو الصّداقة، أو الإبداع، هو الفراغ؟
وهل أستطيع، إذاً، أن أقول: لا وجودَ للفراغ، إلاّ على أطراف اللّغة،
خارجَ الكلام؟
مرّةً اخترتُ اسماً، لكي أطرح هذه الأسئلة:
لماذا، غالباً، يبدو الحقيقي كأنّه هو، وحده، الوَهْم؟ ويبدو الموجود كأنه هو وحده اللاّموجود؟ ويبدو الحاضر، حَقاً، كأنه هو، وحده، الغائب؟
وبأيّ لَهبٍ نُوَسْوِسُ إلى اللّغة، لكي يُمكنُ فتح نوافذ جديدة في جدران هذه الأبديّة الخانقة؟

ولماذا، أحياناً،
يكونُ أرَقُ الحبِّ أجملَ العيون؟
ولماذا، غالباً،
يكونُ جسَدُ المرأة العاشقة
أكثرَ اتّساعاً مِنَ الأفُق،
ويكونُ حبُّها
حنجرةً لشهيقِ الفضاء؟

III

الطَّيْف؟
لا تَرَاهُ إلا عينٌ عاليةٌ
لا تسمع كلامه إلا أذنٌ
تعرف أسرار الصّمت.

IV

الطّيف؟
جسْرٌ غَائمٌ عائمٌ بين المخيّلة والمادّة.
لا شيء في صورة الشّيء.

V

الطّيف؟
شعرٌ آخر للبصر من أجل أن يُصبِح بصيرةً.
ماءٌ يُبْحرُ فيه، بشراعٍ واحدٍ،
جسَدُ الوَهْم وسَريرُ الحقيقة.

IV براغ

-١-

يبدو أنّ السّماء في ساحة براغ القديمة تظلّ مُعلّقةً بَحْبلٍ ربطته الأيّام بعنق تمثالٍ برونزيٍّ ضخم.

يبدو كذلك أنّ هذه السّماء لا تحبّ الأسئلة التي تَطرحها غيومٌ
تجيء من زفير البشر، لا من الجبال أو من البحار.
غير أنّ المشكلةَ هنا هيَ أنّ الصّحْوَ لغةٌ في المستحيل.

-٢-

خلافاً لما ظنّ رامبو:
الحياةُ هنا حاضرةٌ،
لكنّ الإنسانَ في مكانٍ آخر.

-٣-

مع ذلك،
يُمكن في هذه السّاحة تعلُّم الكيمياء التي تقدر أن تحوّل الغيمةَ
إلى امرأةٍ،
والفضاءَ إلى تجويفٍ أحمر في جبل الشّهوة.

-٤-

خُيّل إليّ، فيما كُنتُ أعبرُ هذه السّاحةَ في اتّجاهِ الشارع الملكي،
أنّ لِلسّيكلوب الآن في البحار الأوروبيّة عينين،
وقلتُ في نفسي مُتسائلاً:
ألم يكن هذا العملاقُ الأسطوريّ أحدَّ نظراً عندما لم تكن له إلا
عينٌ واحدة؟

-٥-

براغ، كمثل بيروت:
يتلصّصُ فيها التقدّمُ لابساً معطفاً أسودَ،
له يدانِ لهما شكلُ ملاكٍ إلكترونيّ.

-٦-

براغ كمثل بيروت:

يكاد الماء فيها أن ينقسمَ هو نفسهُ حَتّى في الكأسِ الواحدة. ذلك أنَّ المنحدرَ أمامَ التقدّم فيها، إنما هو جرحٌ كونيّ.
وثمة انشقاقاتٌ وتصدّعاتٌ في جدران الزّمن، وثمّةَ انكساراتٌ في الهيكل العَظْميّ الذي يُسَمّى المكان.
وانظروا:
الجسم ينتمي إلى المحار،
والعظمُ صَدَفٌ كِلْسيّ:
إذاً،
كيف تهجّئين هنا كلمة العَصْر،
أيّتها الأبديّة؟

-٧-

وَحْيٌ من جهة لا تيرنا ماجيكا:
١- ثقافةٌ كمثل سَمّاعةِ رأسيّةٍ لبَرْقٍ لاسلكيّ.
٢- الحرّية مرفوعَةٌ على عمودٍ ذَريّ.
٣- خيرٌ للقَرْنِ الطّالع أن يلفَّ رأسه بالقَشّ.
٤- عِلْمٌ يَتغَوَّطُ في سرير الشّعر.
٥- تقيّحٌ في رئَةِ العلم.
٦- ليس المهمّ أن يكونَ الإنسانُ أكثرَ من حيوانٍ سياسيّ، المهمُ أن يكون أكثرَ من حيوانٍ ناطق.
٧- ألوهةُ السّياسة هي نفسها سياسة الأُلوهة.

-٨-

براغ في سِروالِها اللّيلّي:
لهذا السّروال حجمُ الشّوارع مجتمعةً.
قيل لي حول مائدة:
رأسُ الحبّ هنا
هو كذلك محمولٌ أبداً
على طبق السّيدة سالومي.

وقيل لي:
لا يتوقّف النّفط العربيّ عن الكلام،
والحقُّ مع غيره، دائماً.
هكذا تحظى بأكثر من سارتر في براغ،
يلبسون جميعاً قُبّعاتِ العمل،
ويَصْنَعون مصافيَ للحرّية في الوجود النِّفْطيّ.
كيف يُدْهَشُ إذاً من يرى أنّ الحبّ يُحبّ أن يعيشَ في قفَص الآلة؟
وكيف لا يُدْهَشُ مَن يرَى أَنّ الحريّة هي نفسها تحرسُ أبوابَ هذا القَفَص؟

-٩-

تجلسُ براغ هي كذلك إلى مائدة العيد الذي لا يُدعى إليه، إلاّ من اختاره الله، أَهْلَ الصّلاة والصّلات، تَخْطيطاً لِلدّخول إلى المناخ الذي تنضجُ فيه الأفكارُ والآلهةُ كما تنضج الفواكه.
وتؤكّد براغ أنّ الكسلَ الأوروبيّ ينامُ في أحضان عَملٍ آخر بين حركاتٍ ليست إلاّ جراحاً عميقةً في عنُقِ اللّغة.

-١٠-

أتنقّل بين الأزقّة القديمة، ويُخيَّل إليَّ كأنّني أسمع أصواتاً:
* تحوّم الحياة حولنا
* كأنها طيرٌ أعمى.
* مهما كانت يمينُ المعنى باذخةً،
فأنا أفضّل الجهة اليُسرى من فِردوس الصُّور.
* بعضُ الكلماتِ هي نفسها سلاسل.
* الجنّة بابٌ مخلوعٌ
أمام المؤمنِ، أيّاً كان.
* ليس في الكواكب غير الغبار،
ليس في الغبار غير الكواكب.

-١١-

براغ – المدينة شعرٌ،
لكن، أين الشعر في براغ – النّاس؟
وهل أصبحتَ أقلَّ من توتٍ برّي
حَتّى أنتَ، أيّها الشعر؟
إذاً، باسْم الشعر،
احملِ الشّمسَ على كتفيكَ، وقُل للفضاء: كن قميصاً.
آنذاك تعرف كيف تَكْتَسي بالسّماء صاعداً على سُلّم اللّون،
وكيف تنسج قوسَ قُزَحٍ من خيوط المخيّلة.
ولا تَنْسَ: العمَلُ هنا، كمثل الغيم، أَنْفَاسُ مُرْهقينَ يكتبون تاريخهم بحبْرٍ هو نفسه تاريخٌ مُرْهَق.
هكذا،
إنْ جاءكَ البحر المتوسّط، صباحاً، فمن الممكنِ أَن تهمسَ في أذنيه: أخطأتَ الطريقَ يا صديقي.
عُدْ صباحَ غدٍ لكي أدلّكَ عليها. غير أَنّني سأُقيم باسْمكَ جبْهةً مع اللّيل، وأنتظر.
لا تَقْلَقْ. عندي صَبْرُ المجَرّات.

-١٢-

جسر شارل

تحت قنطرته الوسطى عَرَباتُ حَمَام تجرّ ثيراناً سماويّة اخْتُصّتْ بإيقاظ الموتى الذين اختُصّوا بإيقاظ الأحياء.
كانت الحريّة قد أشعلت شموعاً سالَتْ مع ماء فِلْتافا.
السّياحة غبارُ العصر، وفلتافا يتدفّق بكاءً.
أتخيّل طريقاً آخرَ للتاريخ، وأتكئ على القنطرة الأخيرة في جسر شارل، أتحاور مع ماء العالم:
عرفتَ، أيّها الشّيطان الفاتِن، كيف تُلفز الكلامُ، مرّةً واحدةً وإلى الأبد.
متى سَتُوَسْوِسُ للشّاعر لكي يضعَ أخيراً طُغْمَةَ الهُرْمونيّ حول سُرّةِ السّماء؟
(براغ، ٧ – ١١ حزيران ٢٠٠٩)

V في الليل،
والسّماء كمثل جسم فاتن

-١-

أهناك جسدٌ آخرُ للضّوء غيرُ منظور؟

إن كان ذلك موجوداً، فلا بُدّ من أن تكون هناك جهةٌ أخرى للهواء غير منظورة.

لا بُدّ كذلك من أن يكون الضّوء يتدفّق في كل منّا، غير أنّنا لا نراه.

خاطرةٌ لم أكَدْ أنتهي من كتابتها، أمس الأوّل، حتّى رَنّ جرسُ الهاتف:

– أنتَ مدعوّ إلى تنّورين.

– غداً؟

– غداً.

لم يكن مُمكناً، بالنسبة إليّ – أنا الذي يتخبط في شبكة المدينة، أن أقول: لا. خصوصاً أن وسيم حرب هو صاحب الدعوة وعرفت أنّه دعا كذلك بعض صديقاته وأصدقائه الخُلصاء.

-٢-

في الطريق إلى تنّورين، غرقتُ في التأمل وعيناي تتسابقان لالتقاط صور الأماكن التي نمرّ بها، أو تتراءى من بعيد.

طريقٌ سَلاَلمُ يصعد عليها النّظر نحو فِتنةِ الفضاءات، ويهبطُ نحو أسرار الأرض.

هكذا كُنتُ أرى الجمال يمسح بشفتيه الغبارَ الذي تكدّسه الأيّامُ على جسد المادّة، وأرى كيف يمكن أن تغسل يدُ المكان وَجه التّاريخ.

الكورة، قَنات، قنيور، برحليون، حدث الجبّة، تخلق فيك عيناً أخرى تشعر كأنك تلمسها للمرّة الأولى: عيناً تتيح لك السير على طريق الخروج من عالمٍ ينهض على أعمدةٍ من الخناجر والسكاكين.

-٣-

وصلنا. لا تنورين البلدة، بل تنورين - الجرد، أعني الأطرافَ والضواحي التي لم تفسدها بعد النفاياتُ المدنيّة.

الحقولُ الصغيرة المهيأة بإتقانٍ وشَغَفٍ لكي تكون بيوتاً للشجر والنّباتات، منثورةٌ في أحضانِ جبلٍ أخضرَ، يتعمَّمُ بالغيم والشّمس، وتخوض قَدَماهُ في العشب، وفي نباتاتٍ وأشجارٍ يتعذّر عليّ ذكر أسمائِها. وأكيدٌ أنّ كثيراً منها سَيُفْلِتُ حتّى من ذاكرة البستانيّ نفسه، إذا سُئِلَ عنها، وذلك لتعدُّدها وتنوّعها.

-٤-

ليس البيت الذي استضافنا مجرَّد بيت. إنه مكان للقاءاتٍ باذخة بين النجوم والصخور. بين قبة السّماء ورؤوس الأشجار. بين التُّرْبَة والرّغبة. بين بهاء الطبيعة وبهاء الإنسان.

الحجارةُ نفسها وقِطعُ الخشب تأخذ أشكالاً فنيَّةً كمثل تَماثِيل تبدو كأنّ إزميلَ الدهر هو، وحده، نحَّاتُها الكريم.

-٥-

في اللّيل، إلى جوار العريشة، حول نارٍ تذكّرُ بعشاقها الأوائل، كان الجسد يمتزجُ بالوَرْد والخُزامى. وكانت السّماء كمثل جسمٍ فاتنٍ لا يليق بغير كوكب الزُّهرةِ أن يكون سُترةً له.

ورأيت هذا الكوكب ينزل نحونا لكي يسهر معنا في سرير هذا المكان. وكان في طريقه ينثر فوقنا أزهاراً لا تنبتُ إلاّ بين يديه.

-٦-

- السياسة؟

- تقصد الرّاهنة؟ أفكّر في السيّاسة، غير أنني لا أفكر سياسيّاً. والأساسُ في الحالين هو أن يتكلم الصّدق، وحده، ضد أحلاف الكذب، التي لا تُحصى.

- نتفق، إذاً على أن هناك صَلْباً آخر: لبنان مربوطاً بسلاسلَ

أخرى على عمودِ معدنٍ جهنمي. ولهذا المعدن اسمٌ توأمٌ، هو العَرْش والقرش.

– رُبّما لهذا كان الشجر يسألني، حزيناً في الطريق إلى تنورين: إلى أين تمضي؟

وكلٌ يعرف: لا شيء، في الأخير، يستطيع أن يكسو لبنان غير النجوم ولا طاقة تقدر أن تُعرّيه إلا الشمس.

–٧–

أخذت أعقد خيوط الحلم بأذرع التّلال والأودية والذُّروات، وألقي على أكتافها مناديلَ الشُّهوة.

رأيت مع كل شجرة كرةً يدحرجها الهواء في مسافاتٍ تقول، تارةً، إنها الخيال، وتقول تارةً إنها الواقع.

وظهر لي أن للخُبزِ هنا، ولكلّ ما تتذّوقه، طعْماً آخر، كأنه الألفُ مُفْتَتِحاً مُعْجَمَ الملذّات. وتأكد لي أن لِلُغَة دماً آخر، وأنّ للكلمات أشكالاً تتمرأى فيها أمواج الصُّور،

صورٌ تحتضنك، تأخذك وتَعْلو بك حَتّى أنّك لتشعرُ بالخوف من الصّعود معها على درجات المعنى.

–٨–

– السياسة؟

– تقصدين السياسة الرَّاهنة؟

– بخيوطٍ من الضوء والحرِّية والصّداقَة تصل تنّورين بين قدميّ وعتبة البيت الذي أنشأه وسيم حرب، وبين يديّ ونوافذه.

وأسألكِ، إذاً:

لماذا يبدو الزّمن عندنا متخلفاً وأعمى في حضرة هذا البهاءِ الأرضي الفريد؟ زمنٌ: قمصانَه هشيمٌ، وخطواته هباء.

وسمعت من يجيبني هامساً: لن تكون نفسَك إلاّ فيما تبتكر، أو تحاول أَنْ تبتكِر، لكل لحظةٍ سماءَ.

– السّياسة الراهنة؟

فجأةً، حول النّار في حضن البيت إلى جوار العريشة. نَزَل في ثيابي هواءٌ باردٌ تمرّد على تراث الحرارة مع أعضائي، وأخذتُ أرتجف كأنني لهبُ شمعةٍ واهنة.
غير أنّ كوكبَ الزّهرة، سرعانَ ما فَتَحَ ذراعيه وغمرني بعباءته.
فجأةً، حول النار نفسها شبّت في جسدي أَحْصِنَةُ الدّفء، وأَخَذَتْ تنطلق فيه، تأتي وتذهب، كأنّه أُفقٌ لأعناقها.

-٩-

- العزلة؟
- كلاّ. تكفي هنا شجرةٌ واحدة أو زهرةٌ واحدةٌ لكي تفتح أمامك نوافذ العالم.
بالعمل، طبعاً، لا بالأمل. الأَمَلُ غالباً، كسلٌ آخر.
والعمل هو أن تخترق الظلام دون أن تُشَوِّشَ الفضاء الذي يتحرك فيه الضّوء.

-١٠-

استأنفتُ التَّتَلْمُذَ على شجرة التّوت الشّاميّ: كيف ألمس الأسودَ فينبجس منه الأحمر، وكيف أعلّم حبري المزجَ بين الأسودِ والأخضر والأحمر في لمسةٍ واحدة.
كان الوقت يتلألأ في جسدي كمثل نجمةٍ تنزل على حَبْلٍ من الضوء موصولٍ بيديَّ وخاصرتي. وأظنّ، أن الجبل الذي أقابله قد اقتنعَ بأن له أصدقاءَ كثيرين في العلو جديرين بثقته، ويقدر أن يطمئن إليهم وإن لم يعيشوا دائماً في جواره.
هكذا، قبل أن أعود إلى المدينة، هيّأت بضع كلماتٍ لكي أطلقها في الهواء، في جُرْذٍ تنّورين وضعتُ في كل كلمةٍ سراً يتيح لها أن تتحول إلى طائرٍ أو إلى غيمة أو إلى غصن.
وقلتُ: ستكون هذه تحيتي الدائمة إلى وسيم حرب.

-١١-

كان الليل يعلق في كاحلي هذا المكان أجراساً للحرية والحب

وشعرت كأنّه يجمع ضوءَ هذا المكان وظلّه لكي يَهْدِيَها إلى نجومه.
هكذا تردّدت في الذّهاب إلى النّوم، وكِدْتُ أن أرفضه لولا أنّه أجملُ ثقبٍ في عتمةِ المادّة: لا نرَى الكونَ حَقّاً، بأنواره وظلماته، بدوائرِه ومثلّثاته، إلا منه، ذلك أنّه صِنْوٌ للشِّعر، خصوصاً لنوافذه التي يفتحها في بَيْت اللاّنهاية.
اللاّنهاية؟ هنا تنامُ وتنهض معكَ في فِراشٍ واحد.
تُحيطُ بكَ الطّبيعةُ – جبالاً وأوديةً وفضاءاتٍ، وتُسَرْبِلُكَ بِقُفْطَانِها المُزَرْكشِ، مجبولاً بعِطرِ المجهول.

VI

بعلبك، نبع العاصي
فيض الجسد

-١-

«هل الإيديولوجيّة جثّة الحياة»؟ «هل الكتابة جثة الفكر»؟: تساءلت أمس، فيما كنت أرقص مع شبانٍ وفتياتٍ بينهن فتاة تغطّي شعرها. لم يمنعها هذا الغطاء من أن تعطي لجسدها حقوقه في الحياة، والفرح، واللذّة، فترقصَ معي ومع غيري، بحريةٍ وغبطةٍ. كان ذلك في مقهى على نبع العاصي، الطالع من أحشاء الأرض في رقصٍ آخر لا تعرف اللغة كيف تقرع أبوابه.
لا يعرفُ أحدنا الآخر. لم يتحدّث أحدنا إلى الآخر. مع ذلك، رقصنا معاً. جمعت بيننا طاقة الحياة فينا، تفجرات الرغبة، «تقاليد» مما وراء «الأفكار» و«الإيديولوجيات»، و«الأحزاب» – تقاليد الفنّ، فنّ الحياة والإنسان والطبيعة، تقاليد الموسيقى والغناء والرقص، التقاليد الطالعة من أغوار الحياة، كمثل نبع العاصي الطّالع من أعماق الأرض.
وطبيعيّ أن يتراجـــع آنذاك «الثقافي»، «المصنوع»، «المعلّب»، وأن يتقدم «الحياتيّ»، «الطبيعيّ»، «العفويّ»، أن تغيب «الإيديولوجيّات»، وتحضر الأجسادُ ونبضاتها. أن تَنْحَسِرَ «الرّوح» ويفيض «الجسد».

بلى، نُحرر الحياة والعقل، بقدر ما نعطي للجسد حقوقه. ونحرّر الكتابة بقدر ما نجعلها جزءاً من هذه الحقوق. ذلك أنّ هوان الجسد ليس إلا هواناً للحياة، وللإنسان، وللفكر، وللّغة جميعاً.

-٢-

في الطريق الى نبع العاصي، وهي طويلة، ثلاث ساعاتٍ من بيروت، مررنا - الأصدقاء وأنا - لرؤية بعلبك، خصوصاً أن معظمنا لم يرَها منذ فترة طويلة.
بعلبك: قسمها «الحيّ» يزداد تخبّطاً، وقسمها «الميّت» يزداد، على العكس، بهاءً وحياةً - على رغم أن مساحاته تكاد أن تئنّ تحت وطأة النفايات من كل نوع، بدءاً من قناني الماء الفارغة.
أليست النظافة من الإيمان، يا سُكّان بعلبك؟
آهِ، ما أبعد المسافة، مسافة الإبداع والجمال والحريّة، بين بعلبك السّلف، وبعلبك الخلف.
للمناسبة، لي رجاء خاصّ لسماحة السيّد حسن نصرالله، هو أن يأمر بإزالة الشعار الذي «نُحت» على واجهة القلعة من داخل.
فلا يجوز أن يُتّخذَ من المقاومة، من نبلها وعطائها، من آلامها وتضحياتها، وسائل تهبطُ بها إلى مستوياتٍ تسيء إليها، وإلى رمزيّتها العالية. فهذا الشعار «نُحت»، باسم المقاومة. وهو «نحتٌ» يبدو كأنّه قطعة بلاستيكيّة مُلصقةٌ بشكل بشعٍ على واجهةِ أثرٍ يُعدّ بين الآثار الإبداعية الكبرى في التاريخ كلّه.
وهو شعار لا يفيد المقاومة في شيء، على صعيد الدلالة والمعنى، أو حتّى على صعيد الدّعاوة والإعلان. إضافةً الى أنه بائِسٌ ومُتهافتٌ، على الصعيد الفني الجمالي، وخطأ على صعيد اللغة.
فليس هناك أيّ مسوّغ أو أيّة ضرورة كتابية أو شعرية لكتابة الشعار بهذا الشكل: «مقاومة تحمي وطن»، وإنما يجب أن يكتب: «مقاومة تحمي وطناً».
المقاومة فَنّ في إضاءة الحياة، وفي بناء التّاريخ. ولذلك فإنّ الفنّ الذي يُعبّر عنها يجب أن يكون في مستواها، مستوى إضاءة

الحياة، وبناء التّاريخ. فوضعها، فنياً، بشكلٍ قبيح، في ظلّ أثرٍ عظيم، من طبيعةٍ أخرى، يجعل هذا الوضعَ «دخيلاً»، و«نابياً»، وفي غير «مكانه» و«مقامه»، ونوعاً من «الاعتداء» مما يشوّه فكرة المقاومة، وأبطالها، وتضحياتهم العالية، ومِمّا يشوّه علاقتنا الإنسانية والفنّية بالتاريخ، وبالأعمال الفنية التاريخيّة الكبرى، ومما يكشف أخيراً عن ضحالة رؤيتنا في هذا كلّه.

رجاءً،

رجاءً يا سيّدي،

أن تأمرَ بإزالته.

-٣-

قالت لأصدقائها في طريقنا إلى نبع العاصي:

«ننتمي إلى مجتمع يقول لنا، كلَّ يوم، بطريقةٍ أو بأخرى، ليس للإنسان حقٌّ في السعادة، وليس له حقٌّ في الحريّة، هكذا علينا أن نثبت كل يوم ما يناقض هذا القول، وما ينقضُه».

-٤-

الطّريق بين بعلبك ونبع العاصي «جرحٌ» مفتوحٌ، ينزف «تقنيةً».

«الأجنبيّ» الذي نحارب حضوره، نظريّاً، يملأ حياتنا، عمليّاً.

الاستقلال هو أن تستقلّ كذلك اليدُ، لا «الفكرة» وحدها.

-٥-

قال:

«لا يتمثّل القمعُ في قمع السلطة وحدها. يتمثل كذلك في قمع المجتمع نفسه الأفرادَ الذين يتكوّن منهم. وهو الذي يسوّغ القمع الأوّل، عدا أنّه الأشدّ فتكاً بالإنسان وحقوقه».

-٦-

قالت:

«أختلف معكم. ربّما لكي يكون اختلافي عنكم وسيلةً لحبٍ آخر لكم، ولاكتشافٍ آخر».

-٧-

في قلعة بعلبك، أحسستُ أنّ كلاً منا كان يخاطب أعمدتَها:
«لي فيكِ ماضٍ، لا أجد فيه إلاّ المستقبل».

-٨-

كأنّ لبعلبكّ أعضاء توشوشني هذه اللحظة:
«لو كنتُ أنجب أبناءَ
لكنت أطلقتُ على أحدهم اسم الدّهر».

-٩-

أطوفُ، بعلبك، في حضوركِ، لكي أتعلّم كيف أزداد قرباً إلى الغيب.

-١٠-

كلّما التقيتكِ، بعلبك، أشعر أنّنا نتحوّل، أنتِ وأنا، إلى طبيبين يسهران على راحة ذلك المريض الأبديّ: الزّمن.

-١١-

خِلْسةً،
أغـريتُ الحـبَّ، في معبد باخوس، أن يسيرَ أمامي لغرضٍ واحـد: أن أراه، كما هو في ذاكرتي، طفلاً.

-١٢-

لماذا تحبّ أن تعاشر الموتَ في الجزء «الميّت» من بعلبك، وتحبّ أن تهرب من الحياة في جزئها «الحيّ»؟

-١٣-

أحياناً، يدهشني جسد بعلبك،
غَير أنه، دائماً، يضيئني.

-١٤-

اسمحي لي، بعلبك،
أن أنسبَ أخطاءك لي،
لكي أعرف كيف أنتسبُ إليكِ.

-١٥-

الشمس تستيقظ في وجه الفضاء،
الفضاء، والشمس يستيقظان في وجه بعلبك،
كأنّها امرأة عاشقة.

-١٦-

من جديدٍ، كرّرت بعلبك درسها عليّ:
«لا تعش إلا في أوج جسدكَ،
لكي تسقطَ من شاهقٍ،
إذا سقطت».

-١٧-

قالت:
«الجسدُ معلّم الرّوح».

-١٨-

ليست بعلبكّ درجاً نصعدُ عليه،
بعلبكّ محيطٌ نتموّج فيه.

-١٩-

بعلبكّ والعاصي:
فنّ الثقافة وفنّ الطبيعة،
إبداعان فريدان في العالم – ولا نرى فيهما إلى أبعد من «السياحة» و«التجارة».
كأنّ لغتنا «الثقافيّة» تكره الطبيعة،
وكأن لغتنا «الطبيعيّة» تكره الثّقافة.

-٢٠-

–لا أحبّ السّهر.
– أنا أحبّه. السّهر غطاءٌ آخر لسرير الحبّ.
(بيروت، ١١ آب ٢٠٠٥)

VII

أمكنة، أشياء، غوايات

-١-

وجهاً لوجه. في الجهة المقابلة من مائدة العشاء التي جمعتنا في مطعم يطل على البوسفور، (اسطنبول، ٢٧/١٠/٢٠٠٤).
وجهها تيه سماوي. لا أعرف أين أضع عيني – حول الشفتين الضفتين اللتين يجري بينهما كوثر الأرض؟ حول اللازورد الذي ينبثق من تحت أهدابها، ناسجاً فضاء آخر داخل الفضاء؟
حول الأنف الأقنى؟ الخدين؟ المنحنى الذي يجمع بين ذروة الشفة السفلى ومنحدر الذقن؟
أنظر إليها خلسة.
لا تنظر إلا إلى نفسها.
هل ذكّرني وجهها بما لم يكتمل فيّ؟ بما لا أزال أبحث عنه؟ ولماذا لا أعرف أن أسمّي ذلك «الشيء» الذي يتلألأ فيه، ويشع منه؟ لأقلْ إنه مادة شاهقة تولّد في جسدي كله ما يشبه انخفاضاً يتأرجح

بين الوجع والرغبة والدهشة.
مادة شاهقة؟
وأكاد أن أقول: الجمال، كما يتجلّى في هذا الوجه، وكما يتجلّى في الأشياء كلها، يحوّل الزمن كله إلى لحظةٍ تتوقف فيها الحركة، وتتوقف الصيرورة.
وأكاد أن أقول إن في الجمال قوة تجعل من الصيرورة نفسها ماهية، ومن الغياب نفسه حضوراً.
والحب هو جسد هذا الحضور، ونشوته العليا.

-١-

اسطنبول – لا عمل لهذا العالم إلا الغياب.
ما تكون، إذاً، علاقة اللغة بهذا العالم؟
أليس ما نقوله في هذا العالم – الغياب، هو نفسه ما لا نقدر أن نقوله؟
لكن، أليست اللغة، إذاً، نوعاً من الوجود الهذياني الذي يحتضن الإنسان والحياة والعالم، والذي لا حضور للإنسان إلا به وفيه؟

-٢-

أسافر كثيراً. ويتيح لي هذا السفر أن أرى أشياء كثيرة، وأمكنة كثيرة.
الأمكنة، كمثل الأشياء فضاء، مناخ، ضوء.
وعندما أغيب عنها، أنتبه إلى أنني لم أرَ منها إلا «معناها». تنطبع «روحها» في حواشي، وتفلت «أجسامها» عابرة في اتجاه الخفاء.
سابقاً، في السفر – في قطار أو طائرة، كنت أحب أن أجلس دائماً قرب النافذة وكنت ألاقي صعوبة في أن أرفع عيني عما أشاهده عبرها – خصوصاً تشكلات الغيوم، في الجو، وأجساد الشجر واقفة على الأرض.
اليوم، صرت على العكس، أحب الجلوس بعيداً من النافذة. أهي

بداية الهبوط إلى الداخل، إلى «القبر»، تبعاً للتقدم في السن، نحو الشيخوخة؟ كأنما «الظاهر» لا يعود مغرياً في هذه السن، وكأنما «الباطن» على العكس، يصبح في مختلف دلالاته، نقطة الغواية والجاذبية.

-٣-

في زيارتي الأخيرة للقرية التي ولدت فيها، رأيت أطفالاً كأن الزمن يقف بين شفاههم كمثل ثدي متجعد وجاف،
ورأيت رجالاً ونساء، خُيل إليّ، فيما أتحدث معهم، أنهم يتهيأون لكي يشربوا دموعهم.
أيديهم الممدودة إلى السماء وشفاههم الطافحة بالصلاة، لم تستطع حتى الآن أن تقنع أي عناية بأن ترفرف عليهم. مع ذلك، يواصلون بعناد تحديقهم في اتجاه النجوم.
زمن – عكاز
يكاد الطحلب أن ينبت على أطرافه.

-٤-

الموسيقى، الضوء، وأنا
حلفاء للغيم – هذه اللّحظة.

-٥-

تستيقظ الحقيقة في الطبيعة، عاريةً،
في الكتاب، تلبس ثيابَها غالباً.

-٦-

العبارة الجميلة
هي، في ذاتها، حقيقة جميلة.

-٧-

لا تتوقّف الطبيعة عن الكلام،
لكن، همساً.
عندما تنطق بصوتٍ عالٍ
تخرج من بين شفتيها كلمة واحدة:
الحرية

-٨-

لو أن الغابة حاكمة على الورقة،
أما كانت علّقتني على خشبة؟

-٩-

كلا،
لن أكف عن ترصد الزمن،
لنحت أشلائه.

-١٠-

قبّلت الأرض البحر بين عينيه،
ففتح شفتيه إلى الأبد، -
قولي،
هل أنتِ الأرض أم البحر؟

-١١-

عندما كنت أنظر إليك، وأطيل النظر،
لم أكن أراك،
كنت أتمرأى فيكِ.

-١٢-

نيويورك ٨ أيار (مايو) ٢٠٠٤. خطواتي في مكانٍ وأفكاري في مكان آخر. غصّة تمسك بأحشائي.
أتنشّقُ هواءً ملتبساً، وصعباً على الرئة. وما أوهنَ هذا الوقت العربي.

-١٣-

زجاجٌ يبدو كأنه يأمرُ السماءَ لكي تتمرأى فيه.
فولاذٌ وبلاستيك. ضجيجٌ ودخان. غبارٌ وأنقاض.
صورٌ ولافتاتٌ تحوّل الإسمنتَ إلى غابةٍ من الملائكة.
سندويشٌ كوني.

-١٤-

تايم سكوير – أهو المكانُ الملائم لكي أرسم في ذهني خريطةً للأمكنة الأكثر اضطراباً في العالم؟
خِفْيةً، تقدرُ أن تضعَ اسم فلسطين بين هذه الأمكنة.
ربما، خِفْيَةً كذلك، تنزل السماء في ثوبٍ رماديٍّ وتشدّ، صَامِتةً، على يدك.

-١٥-

بخارُ ماءٍ إلهيٍّ،
يَغْلي في قِدْرِ التاريخ، سابحاً بين الجدران العالية.

-١٦-

بياضٌ
كمثل جبلٍ عالٍ يصعد عليه السوادُ مُقْتدياً بسيزيف.

-١٧-

– كيف تستخدم وقتك؟

- آكل عندما أحسّ بالحاجة إلى النوم. أنام عندما أُحسّ بالحاجة إلى القراءة.

-١٨-

ما هذه الآلةُ - الإله؟
أكلّما ازدادتِ الأمكنة قداسةً ازدادَتْ عُنفاً؟

-١٩-

الهوية في نيويورك مسألةٌ في المَعِدة.

-٢٠-

وول ستريت -
حدثٌ كونيٌّ،
يتدرَّب العالمُ في جوفه،
على التهامِ اللحم النيء.

-٢١-

يسيلُ التّعب من عنقِ هذه الكنيسة،
كأنه يسيل من عنق التاريخ.
عقْدُ ألفاظٍ يتدلّى فوقها محفوفاً بالكواكب،
ألَفاظٌ تبدو كأنها أكثر قِدماً من اللغة!

-٢٢-

أوه! هل أصبحتِ الحياةُ نفسها
مِلَفّاً رقمياً؟

-٢٣-

فضاءٌ مفتوحٌ كالجرح.
كيف أواجه الزمن في هذا الجرح إلاّ بالزمن

الذي يجلس الله على عرشه؟
ولن أقيسَ نفسي إلاّ باللانهاية.

-٢٤-
أحبّ الآن، في هذه اللحظة،
أن أسأل الكتب المقدّسة:
في أي مُنخلٍ
نَخلْتِ كلماتِ الآلهة؟

-٢٥-
عنفٌ يكادُ أن يكسرَ جذع اللغة،
وليس للوقتِ وقتٌ لكي يقتفي خطواتِ الموت.

-٢٦-
هل تريد أن تُصبحَ الحقيقةُ واقعاً؟
إذاً، ليس عليك إلا أن تفترضها.

-٢٧-
برودواي -
لم يعد للمخيّلة ما تتكئ عليه غير المعدة.

-٢٨-
في حضن امرأةٍ يابانية
رجلٌ مكسيكيٌّ.

-٢٩-
في داخل كلّ رغبةٍ، جُثّة.

-٣٠-

ما هذا الزمن الذي لا يحضر إلاّ في شيءٍ غائب؟

-٣١-

نساءٌ كمثل عرباتٍ تجرّها الفاكهة.

-٣٢-

الفكرة العظيمة كمثل القصيدة العظيمة، «حربٌ»:
على عادات التفكير،
على عادات اللّغة،
على عادات الكتابة،
على عادات القراءة.
ألهذا يسمّيها بعضهم «جريمة»؟

-٣٣-

هل سأعرفُ كيف أقود حياتي؟
هل سأعرف كيف تقودني؟
ثمّةَ فَخٌّ أينما اتّجهت، وكيفما توجّهت.
فَخٌّ: ماءٌ ونارٌ في إنبيقٍ واحد.

-٣٤-

ساسة: حربٌ في غابات من الأشلاء والبعوض والذُّباب.

-٣٥-

مَن قال إن الموتى لا يتكلّمون؟
إنهم لا يتوقّفون عن الكلام، غير أنّهم يتكلّمون بأفواه الأحياء.

-٣٦-

تُمضي حياتَك في حَفْرِ طريقٍ من أجل أن تسيرَ عليه نحو ما تشاء. فجأةً، تكتشف أنّ الطّريق انتهى، وأنّ خطواتكَ لا تزال في بداياتها.

-٣٧-

الصّراعُ بين الشّرع والجسد، تراجيديا.
والصّراعُ بين الشرع والعقل، مَلْهاة.

-٣٨-

لا يعرف المحافظون في المجتمع العربي أن يحافظوا إلاّ على الأشلاء.
لا يعرف أعداؤهم أن يحافظوا على أيّ شيء، إلاّ على أنفسهم.

-٣٩-

لم تعد الكتابة العربية، اليوم سفراً بين الهاوية والذّروة. لكن، لماذا تُصبح تسكّعاً بين الشّارع والمطبخ وما بينهما؟

-٤٠-

أسوةً بفنّ البوب، رسماً وموسيقى، رَقْصاً وغناءً، أميلُ إلى الظنّ أن الشعر العربي الذي يكتب، اليوم، سَيُؤَرَّخُ له بوصفه شعرَ البوب العربي.

-٤١-

مأخوذٌ بتعلّم اللّغات التي تخاف الألسنةُ أن تتهجّاها.

-٤٢-

للشعر، هو أيضاً، مراكزُ اعتقاله ونفيه. ألهذا نجدُ ماءَ للزّمن العربيّ يرفض الشعر أن يسبحَ فيه حتّى ولو كان حوضَ الأبدية؟

-٤٣-
خيرٌ لثقافةٍ مليئةٍ بجراح الموت البطيء أن نُعَجّلَ في الإجهاز عليها.

-٤٤-
سُوسٌ يتجيَّش تحت بَشَرةِ الوقت.

-٤٥-
هل علينا، إذاً، أن نبدأ فنتعلَّم الماءَ، ونخلقَ ما يُصالحُ بين فيزياء الإسمنتَ، وكيمياء النجوم؟

-٤٦-
الدّخانُ يُشعل قناديل المعنى.

-٤٧-
مَن يقولُ الشّمس والقمر أخوان،
وما ينبغي أن يوحّد بينهما،
هو نفسه الذي يفرقهما؟

-٤٨-
لا شيءَ في الطّبيعة غيرُ الشّيء،
لا شيءَ في ما وراءها، إلا اللاّشيء.
اللاّشيء، ذروةٌ وهاويةٌ في آنٍ:
هل أستطيع، إذاً، أن أَهُزّ بجذع اللاّشيء،
لكي تسّاقَطَ عليَّ ثمارُ الغيبْ؟

-٤٩-
تقول إنك تغسل وَجْه اللّيل بيد الفجر؟
قُلْ لي: ما نوعُ الماء الذي تغسلُ به؟

-٥٠-

لا يُحبّ نرسيس أن يُقيم إلا في المرآة:
لا يُحبّ أن يكون له مكانٌ غيرُ اللاَّمكان.

-٥١-

الحجرُ الذي رميته في النبع لم يسقط فيه، بل سقط بين أهدابكَ:
تَحسَّسْ عينيك.

-٥٢-

اليقينُ ساذَجٌ حَتّى أنّه لا يعرف نفسه إلا بوصفه نقيضاً للشكّ.
وهو عاجزٌ أن يكون في مستوى الحياة:
طِفْلاً أو شيخاً، بدايةً أو نهاية.

-٥٣-

ما أعجبكَ، أيّها الحبّ:
كيف تكون فراشةً في الكلام.
وناراً في الممارسة؟
ألَن تُعلّمني كيف أقرأ اسمي في اللاّئحة؟
التي يكتبها الدّخانُ على جِدار الهواء؟

-٥٤-

الضّباب الهاربُ أبداً هو الأَخُ البِكْرُ للمادّة المقيمة أبداً.

-٥٥-

بلى، يقدر الماءُ أن يكونَ حارِسَاً على كلّ شيءٍ، إلا على الرّمل.

-٥٦-

لم يعد الثّمرُ في حاجةٍ إلى الفصول:
الاحتمالُ طَفْرَةٌ في شريان كلّ شيء.

-٥٧-
حَبْلُ نجْمةٍ يقفز عليه المشرّدونَ والتائهون.

-٥٨-
حاكيتُ العناصرَ وفشلتُ، إلاّ في محاكاة النّار.

-٥٩-
الزّمنُ عاصفةٌ، لكن يمكن التغلب عليها بما هو أضعف منها؛ الفنّ.

-٦٠-
وَقْتٌ -
يتدوَّرُ في فُقَاعاتِ ماءٍ مُوحِل.

-٦١-
بنيت هيكلاً لعينيَّ،
لكي تُصلّيَ فيه خطواتي.

-٦٢-
هنا، في غرفتي، على شُرْفةٍ سميتها الوحدة،
تجلس وردةٌ حول كرسيٍّ فارِغ.
لكن، من هذه المرأةُ التي تتحدّثُ مع نفسها
بلسان الوردة؟

-٦٣-
في الخزانة، قرب السّرير، غبارٌ عتيقٌ جديد،
للغبار شكل الدُّمية،
للدمية شكلُ طفلةٍ لا تتوقف عن الرّقص.
لا تزال يداها بين الدّفاتر،
لا تزال خطواتها تتوهج بين الجدران.

-٦٤-

بيتٌ – كمن يحاول أن يُحوّل البحرَ
إلى رسائلَ،
وأَسرّةٍ، وقُمصان.

-٦٥-

بيتٌ – غرفٌ كمثل حقائبَ على الرّصيف،
لا هِيَ دروبٌ،
لا هِيَ سفرٌ،
لا هِيَ أحلام:
حقائبُ – أثقالٌ ومرارات.

-٦٦-

بيني وبين وجهي مرآةٌ تفصلني عَنّي،
بين أسمائي وأفعالي سماواتٌ تيبس،
وأرضٌ تَتَشَقّقُ ظمأً.
الحروفُ غاباتٌ من الكلمات،
الكلمات غاباتٌ من الظنّ،
والكتابة سَفَرٌ في المتاهات.
أين الأفقُ الذي تتنوّر به أحشائي؟

-٦٧-

هل تُريد أن تكونَ سماءً ثانية؟
إذاً، اعشق الأرض.

-٦٨-

الحياةُ التي أعيشها، لا أعرفها.
هل يمكن أن نعرف ما نعيشه؟
هل يمكن أن نعيش ما نعرفه؟

المعرفةِ نَهارٌ وليلٌ في آن،
وأن نعيش ليْلٌ لا غير.

-٦٩-
رغبتي أن أغيّر الضّفافَ.
لا أن أكونَ جسْراً.

-٧٠-
تتعذّر رؤية الوجه بشكلٍ كاملٍ ونهائي،
وهذا سرُّه، وأجملُ ما فيه.
الوجه آخرُ السّراب وأوّل الماء.

-٧١ -
اختبرْ تلك النّافذة في هذه القصيدة:
إن كانت مُضيئةً
فسوفَ تفتح لكِ نوافذ عديدةً أُخرى.

-٧٢-
كأنّما ينبغي عليَّ أن أصعدَ الدرجة الأخيرة من سُلّم الضّوء،
لكي أقدر أن أقرأ ظلّي.
-٧٣-
لا أحبّ قلبي إلا مَرْسُوماً بشفتيّ،
لا أحبّ عقليَ إلا محضوناً بين يديّ.

-٧٤-
اللحظة الأولى للدّخول في سر الكتابة هي لحظة الارْتِطَام بين كلمتين تتآلَفَان من حروفٍ واحدة:
الشّرع والشعر.

-٧٥-

تاريخٌ –

أيّامٌ لا ترى إلاّ نفسَها،

لا تكتب إلا نفسها،

لا تقرأ إلا نفسها:

إنه العبَثُ يجرُ أذيالَ اللّغة.

-٧٦-

تاريخ – تَرْميمُ هياكلَ وعبادات.

-٧٧-

هُو ذا ألمح القمرَ يجلس وراء مكتبه. ينهضُ، يأخذُ لائحةً بأَسماء النجوم ويقدّمها إلى اللّيل.

-٧٨-

كلّما تفوهتُ باسم نَبِيٍّ، أرتكبُ أخطاءَ كثيرة في حَقّ حنجرتي.

-٧٩-

لكلّ قصيدة عظيمة شَفَتَانِ تنتقدانها: شفتان لا ترتويان.

-٨٠-

النّور، في سطوعه الكامل، يتحوّل إلى حجاب. غير أنه الحجابُ الوحيد الكاشف.

-٨١-

تَسلَّحْ – لا تَتسلَّحْ إلا بالنّور.

-٨٢-

افْتَحْ أحشاءَ قصيدةٍ،

واقرأ فيها مصيرَ العالم.

VIII

ربّما

-١-

رُبَّما يعرفُ كلٌّ منا أو معظمنا لحظاتٍ لا يقدرُ فيها أن يكتب أَوْ أَن يَقْرَأَ أو أن يقومَ بأيِّ عَملٍ «مُثمر».
شخصيَّاً، أواجه كثيراً مثل هذه اللّحظات. وهي تجيءُ مَشْحونةً بالضّجر حيناً، وحيناً بالأسئلة التي لا أَجدُ أيَّ جوابٍ لأيٍّ منها.
وهي، إذاً، لحظاتٌ ثقيلةٌ بَطيئَةٌ كأنّها سَيْرٌ في الرّمل.

-٢-

لا أعرف كيف يَخْطُرُ لي في مثل هذه اللَّحَظات أن آخُذَ بيديَّ شيئاً أُلهو به، أيَّ شيءٍ: ورقةً، مِقَصّاً، قلماً. وفيما ألهو، أُفاجَأُ بأنّني أُنجز عملاً: أُنتجُ لقاءً من نوعٍ آخر، بين لهو اليد وضَيَاعِ الرّأس.
وَأقولُ: «أُنتِج»، لأنّ هذا اللقاء يحرّر الرأسَ من ضياعه، ويُعطي لهذا الضياع وظيفةً تتآخى مع تلكَ التي يُنْتِجُها اللّهو اليدويّ.
وفي مثل هذا اللّقاء تنفَتِحُ، غالِباً، أبوابُ المحُال أمام كلماتك، فيتاحُ لها أن تقول، مثلاً: في العناق بين ضياع الرّأس ولَهْوِ اليد يبدو أنّ للقمر عُنُقاً مقطوعاً هو الضّوء.

-٣-

مرّةً، مجروفاً بهذه اللّحظات، تناولت عُلبَةَ كبريتٍ تنتمي إلى عائلةٍ فُندُقيّة. شكلها مستطيل، وفي استِطَالَتِهَا بعض الأناقة، تخطيطاً وتلويناً. بدأ الرّأس يَشْطَحُ، وأخذتِ اليدُ تلعب (هل اللّعب شطحٌ في جسم الشّيء؟):
من جهة الرّأس، خُيّل إليّ أولاً أَنّ علبة الكبريت سريرٌ.
ثم، فجأة، خُيّل إليّ أنّها قبرٌ مليءٌ بأشخاصٍ يَعْتَمِرونَ عمائم فوسفوريّة.
وربّما يجوز في الوعي أن نَصِفَها بأنّها صُندوق. وفي هذا ما يوقظ لاَوَعْينا فيذكّرنا بذلك الشاعر العاشق وَضّاح اليمن الذي خَبّأته «أميرته» العاشقة في صندوق غرفتها، خوفاً عليه من

«أميرها» العاشق. لكن هذا كان ذكيّاً وبارعَ الحيلة، كما تقول الحكاية: اكتشف المخبأ وقتل الشاعر.

-٤-

من جهة اليد، يمكن اللّعب نفسه أن يتحوّل إلى مخيّلةٍ - سؤال: كيف ينامُ عشرون شخصاً بعمائم فوسفوريّة، كمثلِ أعواد الثّقاب، في سريرٍ واحد؟ أو كيف يُدفن هؤلاء في حُفْرةٍ واحدة لا تَتّسِعُ إلا لشخصٍ أو اثنين في أوسع احتمال؟

غيرَ أنَّ شَطْحَ الرأس يُفْلِتُ، غالباً، من سيطرة اليد، ويتخطّاها إلى ما يفلت من كلّ سيطرة. هكذا يحلو لِلشطح أن يوغلَ بعيداً. والغريبُ آنذاك أنّ الرأسَ ينْشقّ على نفسه، ويتمرّد بعضهُ على بعض. يُوَسْوسُ جانبٌ منه: امْضِ في شَطحكَ. جانِبٌ منه يكبحكَ: لا تَشْطَحْ - فأقلُّ ما سيقولهُ النّاسُ عنكَ إنّك عابثٌ أو مجنون.

الأغربُ أن يَنْتَصِرَ لَهْوُ اليد لِشَطْح الرّأس، وأن يُتابعَ في مزيدٍ من الوسوسة: البلادُ كلّها علبة كبريت. خَشبُها ونارُها كتلةٌ واحدة. بشرارةٍ صغيرةٍ منها، تستطيعُ أن تُوَلِّدَ حريقاً كبيراً.

عودُ ثقابٍ - مقاتلٌ مُدَجَّجٌ بالنّار، يَتّحِد بسيارةٍ، أو يتزوّجُ درّاجةً، أو ينفجرُ متوسّداً غَفْلَةَ الوَقْت.

-٥-

في الغيم الممزوجِ بآهاتِ البشر وتباريحهم، الغيم الذي يتكوّن في السّاحات العامّة، في الأزقّة والشّوارع، في المدارس والجامعات والبيوت، تَسبحُ أنواعٌ أخرى كثيرةٌ من أعواد الثّقاب، نافرةً من عُلَبها التي تَنْسَجِن فيها. ورُبّما قيل إنّها في ذلك تبحث عن أصولها المُتَجَمّدة في جبال التّاريخ، وإنّها تختارُ أكثرَ الوسائل فَعّاليّةً في إذابة الجليد، بأنواعِهِ المختلفة، الظّاهرة والباطنة.

-٦-

الليلُ الذي يُحيط بأعوادِ الثّقاب مُدوَّرٌ. وهو باقٍ ما دامَ صانعوها يؤكّدون: سنعلن على النّجوم حَرْبَ الشّموع.

-٧-

في الخَليّةِ الموسيقية النّافرة من جسد الوَقْت، يجلسُ شطحُ الرّأس ولَعبُ اليد: يُصغيان ويتحاوران.

وتكون المصادَفَةُ قَد دَوْزَنَتْ أوتارَها لجوقةٍ خفيّةٍ

تسأل: مَتَى يُثْقَبُ ذلك الحجَرُ الذي يتمدّد على سريرهِ صَمْتُ الطّبيعة؟

لكن،

قولي، أيّتها الخليّة،

من أين، وفي أيّ ثوبٍ سَيجيءُ العَمَلُ الذي يبتكرُ مفاتيحَ المعنى؟

كتاب «دبي الثقافية»
سلسلة دورية تصدر عن مجلة دبي الثقافية

١- «نجيب محفوظ.. قيصر الرواية العربية» - ١٩٩٩.

٢- «سلطان العويس.. شمس الثقافة التي لا تغيب» - ٢٠٠٠.

٣- «المبدعون» - النصوص الفائزة في مسابقة «المبدعون» - الدورة الأولى - ٢٠٠١.

٤- «نازك الملائكة.. أميرة الشعر الحديث» - ٢٠٠١.

٥- «الرنين» - المجموعة الشعرية الفائزة بالجائزة الأولى في مسابقة «المبدعون» - الدورة الثانية - للشاعر السوري أيمن إبراهيم معروف - ٢٠٠٢.

٦- «مدارج الرحيل» - الرواية الفائزة بالجائزة الأولى في مسابقة «المبدعون» - الدورة الثانية - للروائي المصري خالد أحمد السيد - ٢٠٠٢.

٧- «غشاوة» - المجموعة القصصية الفائزة بالجائزة الأولى في مسابقة «المبدعون» - الدورة الثانية - للقاصة الإماراتية عائشة الزعابي - ٢٠٠٢.

٨- «حمد أبو شهاب في ذاكرة الإمارات» - ٢٠٠٢.

٩- «ليالي الحصار.. أحزان عراقية» - شعر - نصوص لشعراء العراق - فبراير ٢٠٠٣.

١٠- «السماء تخبئ أجراسها» - المجموعة الشعرية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «الصدى» للمبدعين - الدورة الثالثة - للشاعر المصري بشير رفعت - ٢٠٠٤.

١١- «تيار هواء» - المجموعة القصصية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «الصدى» للمبدعين - الدورة الثالثة - للكاتبة المغربية حنان درقاوي - ٢٠٠٤.

١٢- «الانكسار» - الرواية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «الصدى» للمبدعين - الدورة الثالثة - للكاتب السوري عامر الدبك - ٢٠٠٤.

١٣- «إلبار الأمريكي» - المجموعة القصصية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «دبي الثقافية» للإبداع - الدورة الخامسة ٢٠٠٦/٢٠٠٧ للكاتب العراقي وارد بدر السالم.

١٤- «إلى الأبد.. و... يوم» - الرواية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «دبي الثقافية» للإبداع - الدورة الخامسة ٢٠٠٦/٢٠٠٧ للكاتب السوري عادل محمود.

١٥- «قمر أور» - المجموعة الشعرية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «دبي الثقافية» للإبداع - الدورة الخامسة ٢٠٠٦/٢٠٠٧ للشاعر العراقي عامر عاصي جبار..

١٦- «مقالات رجاء النقاش» في «دبي الثقافية» - ٢٠٠٨.

١٧- «ليس الماء وحده جواباً عن العطش» - أدونيس - أكتوبر ٢٠٠٨

١٨- «قصيدة النثر أو القصيدة الخرساء» - أحمد عبدالمعطي حجازي - نوفمبر - ٢٠٠٨

١٩- «مدارات في الثقافة والأدب» - عبد العزيز المقالح - ديسمبر - ٢٠٠٨

٢٠ - «من أنت أيها الملاك» - إبراهيم الكوني - يناير - ٢٠٠٩

٢١- «النقد الأدبي والهوية الثقافية» جابر عصفور- فبراير - ٢٠٠٩

٢٢- «قصائد من شعراء جائزة نوبل» اختارها وترجمها د.شهاب غانم - مارس- ٢٠٠٩

٢٣- «الأغاريد والعناقيد» - سيف محمد المري - أبريل - ٢٠٠٩

٢٤- «رواية الحرب اللبنانية.. مدخل ونماذج» - عبده وازن - مايو- ٢٠٠٩

٢٥- «هنا بغداد» - كريم العراقي - يونيو - ٢٠٠٩

٢٦- «أراجيح تغنّي للأطفال» - سليمان العيسى - يوليو - ٢٠٠٩

٢٧- «الحضارات الأولى - الأصول.. والأساطير» - تأليف/ غلين دانيال، ترجمة/ سعيد الغانمي - أغسطس - ٢٠٠٩

٢٨- «محمود درويش حالة شعرية» - صلاح فضل - سبتمبر - ٢٠٠٩

٢٩- «أنثى السراب (شكْرِيبِتُوزِيُومْ)» - واسيني الاعرج - أكتوبر - ٢٠٠٩

٣٠- «حيثُ السحَرة ينادون بعضهَم بأسماء مُستعارة» - سيف الرحبي - نوفمبر - ٢٠٠٩

٣١- «في غيبوبة الذكرى» (دراسات في قصيدة الحداثة) - د. حاتم الصكر - ديسمبر - ٢٠٠٩

٣٢- «وليم شكسبير (سونيتات)» - د. كمال أبو ديب - يناير - ٢٠١٠

٣٣- «العمارة الإسلامية (من الصين إلى الأندلس)» - د. خالد عزب - فبراير - ٢٠١٠

٣٤ - «نحو وعي ثقافي جديد» - د. عبد السلام المسدّي - مارس - ٢٠١٠

٣٥ - «لكي ترسم صورة طائر وقصائد أخرى من الشرق والغرب» - اختارها وترجمها د. شهاب غانم - أبريل - ٢٠١٠

٣٦ - «السّرد والكِتاب» - محمد خضيّر - مايو - ٢٠١٠

٣٧ - «طائر الشعر» - سالم الزمر - يونيو - ٢٠١٠

٣٨ - «أنا والسوريالية» - ترجمة: أشرف أبو اليزيد - يوليو - ٢٠١٠

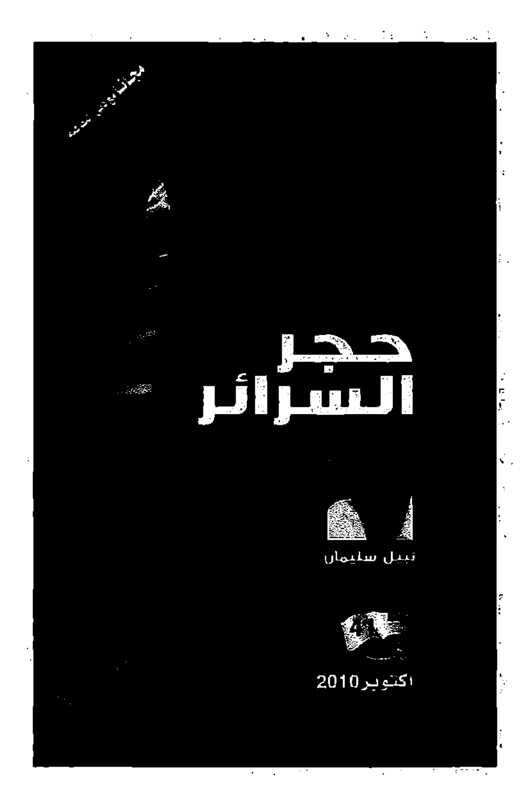
٣٩ - «الحراك الاجتماعي الكويتي في القصة القصيرة» - د. فاطمة يوسف العلي - أغسطس - ٢٠١٠

٤٠ - «فضاء لغبار الطلع» - أدونيس - سبتمبر - ٢٠١٠

ملاحظة:

سلسلة «كتاب دبي الثقافية» كانت تصدر أولاً تحت اسم «كتاب الصدى»، ثم اتخذ رئيس التحرير الاستشاري للمجلة قرارا بتغيير اسم السلسلة بعد صدور مجلة «دبي الثقافية» في مطلع أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٤ ليصبح اسمها «كتاب دبي الثقافية».

الكتـــاب المقبـــل
أكتوبر 2010



حجر السرائر

نبيل سليمان

الرقم الدولي
ISBN978-9948-15-828-8





لا شك أن أدونيس كان يستشعر غربة امرئ القيس وهو يعيش بين غربتين: أدناهما المكان وأصعبهما الزمان، وتبلغ الغربة أقصاها حين يخاطبنا وهو في أقصى الأرض بقصيدة «شانغهاي» في حفل يبدأ ولا ينتهي، ويسهر هو على قبر المعنى، فهل تراه وجد أن الكلمات لم تعد أجساداً قادرة على احتمال روح الشعر وتتكرر الأبجدية؟

سيف المري